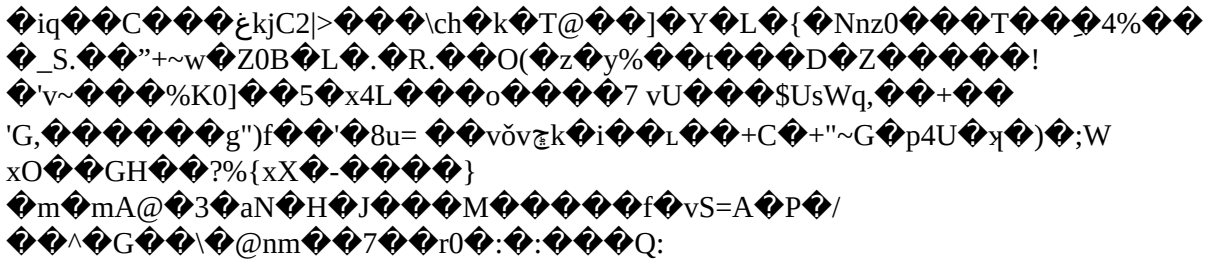
رواية

جاسم النوفلي

صائد المنحرفين





صائد المتحرشين

جاسم النوفلي

الطبعة الأولـى : 2025

تصميم الغلاف : إسلام أحمد

تدقـيق لغـوي : شركة المحرر

إخـراج فنـــي : يوسف الفرماوي

رقـــم الإيـداع : 32397 / 2024

الترقيم الدولي I.S.B.N: 978-977-8842-33-3

جميع الحقوق محفوظة ©

لا يسمح بإعادة نشر أو نسخ أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب، ولا إصداره بأي شكل من الأشكال ورقيًا أو إلكترونيًا أو صوتيًا إلا بإذن خطي من الناشر.

المُحرِّر

info@almoharer.com

01013146678

01124549848

daralmoharrer

صائد المتحرشين

رواية

جاسم النوفلي

المُحرِّر

(١)

في صالة شقة مجهولة، جثة رجل ملقاة على الأرض. يبدو أنه فارق الحياة منذ دقائق فقط، فالدماء لا تزال تسيل من فمه وأنفه على سجادة الصالة المزخرفة. وجهه مهشم بالكامل وملامحه غير واضحة بسبب كتل الدم والكدمات المنتشرة في وجهه، ويبدو أن جزءًا من خده الأيمن قد اختفى تمامًا نتيجة عدة ضربات بآلة معدنية حادة. فُقعت عينه اليمنى، بينما لا تزال اليسرى مفتوحة لا حياة فيها تطالع السقف في سكون.

أزيز ذبابة تحوم حول الجثة، وكأنها مستمتعة بهذه الوليمة الدموية، ولكن تطغى على صوتها قهقهات مذيعة مزعجة في برنامج حواري يبث على شاشة التلفاز في الصالة بالخلفية، تلك النوعية من البرامج التي تبث بعد العاشرة مساءً، والتي تضج بضحكات المذيعة العالية وتصفيق الجمهور في موقع التصوير دون أن نستوعب جملة واحدة مفيدة من الضيف.

صوت خطوات تقترب من الجثة. إنها أقدام شخص يرتدي حذاء أسود، وبنطالًا أسود. يقف عند رأس الجثة بهدوء، ليصبح رأس القتيل بين قدميه. وبعد لحظات من الصمت، يخرج شيئًا من جيب بنطاله. بعد ثوان، يمد يده اليسرى –التي يغطيها قفازه الأسود الجلدي– بصورة فتاة صغيرة مبتسمة مع خلفية زرقاء، صورة من النوع الذي اعتدنا رؤيته على جدران محلات التصوير القديمة. ابتسامة خفيفة وخلفية بسيطة، يبدو أنها صورة مرت عليها سنوات وسنوات، فقد بهتت ألوانها وتشققت أطرافها.

يضع صورة الفتاة بجانب رأس القتيل من جهة اليمين، تتلطخ الصورة بالدماء التي تسيل من رأس القتيل، لكنه لا يأبه بالأمر. بعد لحظات من الصمت، يلتقط صورة فورية للقتيل، يسمع صوت الكاميرا وهي تخرج الصورة الفورية. يأخذ صورة الفتاة التي وضعها بجانب رأس القتيل، ويضع الصورتين داخل جيبه.

ثم يسير بعيدًا عن الجثة، ويهم بالخروج بهدوء من الشقة، بعد أن يطفئ إنارة الصالة. التلفاز لا يزال يعمل، والبرنامج السخيف ما زال مستمرًّا.

***

في أحد الكافيهات في وضح النهار، تجلس امرأة في أوائل العقد الثالث من عمرها، بسيطة المكياج، ترتدي حول رقبتها قلادة عليها اسم «لولوة»، تنظر بأعين دامعة صورة فوتوغرافية للقتيل بين يديها. تحاول لولوة كتم بكائها إلا أن عينها لا تزال تتلألأ من الدموع. يخاطبها الرجل الجالس أمامها بهدوء:

- أين هو؟

ترفع ناظريها إليه، رائد، ضخم الجثة، ممتلئ الجسم قليلًا، من الواضح أنه في العقد الخامس من عمره، وجهه شاحب، ملامحه صارمة، أصلع لكن يمتلك شعرًا خفيفًا على جانبي رأسه الكبير، تسلل الشيب إلى لحيته وما تبقى من شعر رأسه. عيناه تخلوان من أي مشاعر، ترد عليه:

- عفوًا؟

- المبلغ الذي اتفقنا عليه.. أين هو؟

تبلع ريقها وتمسح الدموع التي هربت من عينيها. تضع يدها في حقيبتها الجلدية السوداء التي بجانبها، لتخرج منها ظرفًا بنيًّا ممتلئًا وتضعه على الطاولة، يأخذ رائد الظرف ويفتحه ليرى مبلغًا ماليًّا كبيرًا داخله، يتناول النقود ويبدأ في عدّها، فتسأله:

- هل تعذّب قبل أن يموت؟

يتوقف عن عدّ المبلغ ويرفع ناظريه نحوها. يطالعها بصمت، فتستكمل بصوت مرتعش:

- قبل أن يموت، هل عرف أنك من طرفي؟

يضع الظرف جانبًا ويقترب بجسده نحو الطاولة ليغيّر وضعيته ويضع يديه الاثنتين على الطاولة ليصبح أقرب منها، ليقول لها بصوت هادئ:

- كم سنة مضت على آخر لقاء بينكما؟

تقول وصوتها يرجف:

- ١٩ عامًا.

- أستطيع أن أخبرك بأنه في آخر خمس دقائق من عمره.. عاش ١٩ عامًا من العذاب.

يحكي لها رائد آخر مشهد للقتيل حيث كان راكعًا على الأرض بركبته اليمنى، ملابسه ملطخة بالدماء وأمامه القتيل يلفظ أنفاسه الأخيرة. يهوي بمطرقته على وجهه ليفقع عينه اليمنى، القتيل مطروح على الأرض ترتعش جثته رعشة خروج الروح، يمسك بوجه رائد وبملابسه محاولًا إبعاده عنه والتشبث بحبل الحياة ولو للحظات، لكن بعد عدة ضربات عنيفة بالمطرقة على وجهه ورأسه، ارتخت يداه، لتسقط يده اليسرى، بينما لا تزال اليمنى ممسكة بملابس رائد بقبضة قوية لكن ذراعه مرتخية قليلًا، فارق الرجل الحياة لكن رائد استمر بضرب وجهه بالمطرقة بسرعة وقوة وشراسة، لتتناثر الدماء وتلطخ ملابسه ووجهه.

تبدأ لولوة بالبكاء وتتساقط الدموع من عينيها، لا يعلم رائد إن كانت هذه دموع فرحة أم حزن. يحاول طمأنتها:

- يمكنك أن ترتاحي الآن. الذي لطّخ طفولتك بأفعاله القذرة.. يتعفن الآن وسط دمائه النجسة.

تضع لولوة يدها اليمنى على يد رائد الموضوعة على الطاولة، ينظر إلى يدها. يبدو أنه متفاجئ من ردة فعلها. فهو لم يعتَد على أن يلمسه أحد، على الأقل في آخر ثلاث سنوات، لكنه يخفي ردة فعله، وهي

تحاول التماسك والتوقف عن البكاء.

تنهمر الدموع من عينيها:

- أنت لا تعلم منذ متى وأنا انتظر هذه اللحظة. اللحظة التي أراه فيها يدفع الثمن. ثمن ما فعله معي. سنوات مرت وأنا غير قادرة عن خلعه من تفكيري. سنين وأنا عاجزة على العيش كبقية..

يقاطعها:

- لا ذنب لك.

ترفع رأسها، فيقول:

- كنتِ طفلة بريئة.. لا تدركين أن هناك حيوانات كثيرة في هذا العالم. حيوانات متنكرة في هيئة بشر.

يستكمل والدموع تخنقه:

- لم يخبرك حينها أحد أن عالمنا مليء بالكلاب، بالخنازير الذين لا يملكون أي ذرة من الإنسانية. متعتهم أن يخطفوا الفرحة من أناس لا ذنب لهم.. لا ذنب لكِ.

تنصت إلى حديثه، ثم تقول:

- لم أعرف اسمك.

يتوقف عن الحديث ويرفع ناظريه تجاهها، لتكمل:

- أخبروني ألا أسألك عن اسمك، لكن قيامك بهذه الخدمة جعلني أوّد أن أتعرف أكثر..

يقاطعها وهو يرجع إلى الخلف ليسحب يده من تحت يدها:

- هذه ليست خدمة.

ويشير بيده اليسرى نحو الظرف الممتلئ بالمال في يده اليمنى. فتقول:

- أنا أعلم هذا. لكن ما فعلته أنت.. كنت أتمنى أن أفعله أنا طوال هذه السنين. فعلى الأقل أخبرني من أنت؟

- اعتبريني.. فاعل خير.

في الخلفية كان التلفزيون الموجود بالكافيه يتلو خبر العثور على جثة رجل مقتول في شقته في إحدى المناطق الفخمة في البلاد، تتابع التلفزيون لتشاهد تفاصيل الخبر بتمعن، ثم تنظر نحو رائد، فتراه ترك مكانه وذهب بعيدًا عنها. تظل جالسة في مكانها وهي تتابعه وهو يغادر الكافيه، تلاحظ وجود صورتها وهي طفلة موضوعة على الطاولة أمامها –الصورة التي وضعها رائد مسبقًا أمام رأس القتيل– فترفعها لتلطخ أصابعها بالدماء التي لطخت الصورة.

(٢)

خيّم الليل المدينة بغطائه المظلم، فلا صوت سوى الرياح التي تدب بين العمارات الشاهقة، داخل عمارة تقل عن قريناتها في الطول والفخامة، يسكن رائد إحدى شققها، بها صالة بسيطة تكاد تخلو من الأثاث، وعبر التلفاز برنامج حواري، يحاور فيه المذيع ضيفه حول موضوع انتشار جرائم القتل في الآونة الأخيرة.

يقول المذيع:

- لكن يا أستاذ إسماعيل، أليس من الغريب عدم معرفة القاتل حتى الآن؟

يبتسم الضيف ابتسامة ساخرة:

- بل من الطبيعي ألا نعرف من هو القاتل. من الطبيعي أن يخذلنا نظامنا الأمني في بلدة يكاد ينعدم فيها الأمان.

- يبدو أنك تحمل ضغينة كبرى تجاه حكومتنا يا أستاذنا.

- لا، أبدًا. كل ما في الأمر أنني واقعي. أدرك مدى القبح الذي وصلنا إليه ومدى الضعف الذي وصل إليه قاداتنا.

- أرجوك، من الأفضل ألا ندس السياسة في الأمر، فرجالات الشرطة يقومون بعملهم على أكمل وجه ممكن

يقول إسماعيل بصوت عالٍ ونبرة ساخرة:

- على أكمل وجه؟! حسب علمي أن تاريخ اليوم ليس الأول من أبريل يا أستاذ! دعك من هذه النكات واسمعني. الجهد الذي يبذله ابني المراهق في البحث عن المواقع الإباحية يكاد يفوق الجهد الذي يقوم به رجال الشرطة في البحث عن المجرمين في بلادنا. وتقول لي إنهم يعملون على أكمل وجه!

يستمر الجدال بين المذيع والضيف في البرنامج التلفازي، يعلن المذيع أن جميع القتلى كانوا من خيرة الناس وليست عليهم قضايا معروفة، بينما يحاول الضيف التلميح بأنهم بالتأكيد كانوا يخفون سرًّا عظيمًا. كان رائد في المطبخ يقوم بتحضير العشاء أثناء استماعه للأخبار. يقطع الطماطم بسكينه الحاد، ثم يضع الطماطم المقطعة في الطبق لتنضم إلى مجموعة من قطع الفلفل الأخضر والأصفر والأحمر بالإضافة إلى الزيتون الأسود الإسباني المقطع. يقلّب مزيج الطماطم والفلفل والزيتون في الطبق ثم يفتح علبة تونة ليضعها بالكامل على السلطة. يأتي بزجاجة زيت الزيتون ويضع قليلًا منه على التونة. يخرج من المطبخ ليتجه إلى غرفة المعيشة. يجلس على الأريكة أمام التلفاز، يأخذ جهاز التحكم ويغيّر القناة ليشاهد لقاء تلفزيونيًّا آخر...

يقول المذيع:

- هل تعتقد بأن وراء كل هذه الجرائم شخصًا واحدًا؟ أم جماعة إرهابية هدفها زعزعة أمن البلاد؟

يرد الضيف:

- شخص واحد، اثنان، ثلاثة.. غير مهم. المهم هو السبب؟

- ما هو السبب برأيك؟

يرفع رائد ناظريه نحو التلفاز وهو يأكل التونة، منتظرًا إجابة الضيف.

- ضعف الوازع الديني.

يبتسم رائد ابتسامة ساخرة ويكمل طعامه.

فيقول الضيف:

- واضح أن كل هذه الجرائم سببها غياب الوازع الديني في مجتمعنا (ثم ينظر نحو الكاميرا ويصرخ) الناس تركت الصلاة.. لقد تركتم الصلاة وهذه هي النتيجة.

بعد دقائق ينتهي رائد من طعامه، ويعود إلى المطبخ يغسل سكينه، ومن بعدها يغسل الطبق، يخرج من المطبخ ويغلق إضاءته ثم يتجه إلى غرفة النوم، لكنه يقف فجأة. حينها تظهر طفلة واقفة خلفه على بعد أمتار قليلة. كانت غير واضحة المعالم. شعر بأن الطفلة تقف خلفه، ليظل واقفًا للحظات، يبدو وكأنه تسمّر في مكانه.

وبعد لحظات من الصمت، يتنهد ويقول بصوت هادئ وهو لا يزال يعطيها ظهره:

- سامحيني.. سامحيني. أنا غلطت، تركتكِ دقيقة، وضعتِ مني العمر كله.

يلتفت نحوها ببطء، تقف الطفلة أمامه صامتة. تحدق في عينيه بهدوء. إنها ابنته مريم، تزداد علامات الحزن على وجهه، يبدو أنه على وشك البكاء.. مريم لا تزال تحدق في عينيه بنظرات حزن ممزوجة بخيبة أمل. يمد رائد يديه نحوها، لكنها ترجع إلى الوراء، فلا تريده أن يلمسها.

- مريم.. تعالي.. احضني بابا.

ترجع إلى الوراء أكثر فأكثر وبخطوات بطيئة، بينما لا يزال أبوها يحاول الاقتراب منها وهو يمد يديه نحوها، ترجع إلى الخلف أكثر لتختفي في ظلام غرفة المعيشة، حينها يتوقف عن الاقتراب منها، وينظر إلى يديه اللتين كانتا ممتدتين نحوها، حينها يرى يده ملطخة بالدماء. قطرات الدم تتساقط من أصابعه على أرضية الغرفة، لتتساقط معها الدموع من عينيه.

يجثم على ركبتيه على الأرض ويبكي بحرقة، متذكرًا ما كان...

***

منذ ثلاث سنوات مضت، كان يجلس رائد في حديقة، مبتسمًا فرحًا، لحيته سوداء كثيفة خالية من الشيب. يحمل ابنته الصغيرة مريم ذات السنوات التسع. تضحك مريم من قلبها وهي تمازح والدها، وعلى بُعد منهما تقف عربة آيس كريم أمامها العديد من الأطفال بصحبة ذويهم، يقفون بالطابور منتظرين دورهم لشراء المثلجات، يضع مريم بجانبه على المقعد، وهي تنظر نحوه مبتسمة، ثم يقف مستعدًّا للذهاب إلى عربة الآيس كريم.

- ابقي هنا، حبيبتي. سأحضر لكِ الآيس كريم. تحبين الفانيليا، صح؟

- صح.

يتركها وحدها، ويتجه نحو عربة الآيس كريم، تجلس وحدها ممسكة بدبها الوردي –يشبه الدب الذي نراه في فيلم توي ستوري الجزء الثالث، يقترب منها ببطء ظل رجل غامض، ترفع رأسها تجاهه مبتسمة.

يمسك رائد بالآيس كريم مقبلًا باتجاه المكان الذي ترك فيه مريم لكنه لا يجدها، يصدم ويلتفت إلى يمينه ويساره. يبدأ بالصراخ مناديًا مريم، لكنها لا تجيب. لقد اختفت من المكان. يركض في أرجاء الحديقة، يرمي الآيس كريم ليسقط على العشب الأخضر، ويلتفت حوله لكن لا يجدها.

يركع على الأرض باكيًا بحرقة، وتجتمع الناس حوله مندهشين من المنظر.

(٣)

في صباح اليوم التالي وفي أحد الأحياء البسيطة، نرى مجموعة من الصبيان يركضون في الشارع يحملون في أيديهم مسدسات مياه فارغة اشتروها للتو من البقالة. أمام البقالة، يجلس رجلان، كلّ منهما على كرسي خشبي، أحدهما هو صاحب البقالة، أبو فهد، رجل في العقد الرابع من عمره، في يده سبحة صفراء، والآخر رائد يقرأ الجريدة، وفي الصفحة الأولى منها خبر بالبنط العريض: «قاتل متسلسل في البلاد؟».

يحذر أبو فهد الأطفال:

- إياني وأياكم أن ترشوا أهاليكم بالماء، لا أريد أن أتشاجر مع أحد هذا العيد. أفهمتم؟

لينظر أبو فهد إلى رائد:

- العيد بقي عليه أيام ومن الآن نرى الصبية يركضون بالشارع ويرشون الماء، ألا يكفينا قرفهم في العيد نفسه!

يستمر رائد في قراءة الجريدة ولا يرد، فيكمل أبو فهد:

- ها؟ أقرأت خبر السفاح؟ ما الذي حدث للناس! يا له من عالم غريب! كل أسبوع جريمة جديدة. شخص وجدوه مذبوحًا في شقة، وآخر في شاليه، وآخر في سيارته. البشر باتوا حيوانات.

يجيبه رائد وهو لا يزال يقرأ الجريدة:

- نحن حيوانات منذ قديم الأزل، ننهش في بعضنا، لكن الآن ازدادت وسائل الإعلام، لتزداد معها فضائحنا القذرة وتنتشر معها روائحنا النتنة.

- أحدهم يقول إن هذا القاتل المتسلسل مجرد تمثيلية من الحكومة. لتلهينا عن فضائحهم وتنسينا مصائبهم. فهل من المعقول أن شخصًا واحدًا يقدر على ذبح هؤلاء الأبرياء من دون أن يقبضوا عليه!

- من قال لك إنهم أبرياء؟

- ماذا تقصد؟

- قد يكونون قاموا بأفعال شنيعة في الماضي، وحان وقت الجزاء.

- ما الأفعال الشنيعة التي قاموا بها حتى يُقتلوا بهذه الطريقة المروعة يا رائد؟! أحدهم تم نحره، والآخر وجدوا أحشاءه في الحوض، والثالث عثروا عليه مخصيًّا مرميًّا في حوش منزله، وحتى وإن كانوا مجرمين؟ ألا يوجد قانون؟ القانون هو المسؤول عن معاقبتهم. نحن في دولة ولسنا في غابة.

ينظر رائد إليه ويرد بنبرة غاضبة:

- لا، نحن في غابة.

حينها يستوعب أبو فهد أن الحديث لا يروق لرائد، ليحاول تغيير الموضوع:

- حسنًا، دعك من هذا الحديث يا رائد.. ودعني أحضر لك شيئًا من البقالة.

يرن هاتف رائد رنة وصول رسالة نصية، لكن هاتفه في جيبه ولا يحاول إخراجه.

- لا.. أشكرك، سأغادر الآن.

يهم بالوقوف، لكن أبو فهد يمسك بيده.

- لا تغادر الآن. أنا أراك مرة بالشهر. اجلس ودعني أحضر لك شيئًا من البقالة.

- لا أريد شيئًا، تغديت للتو.

- وجهك أصفر. سأحضر لك سنيكرز.

يرد مبتسمًا:

- سنيكرز! أنت تعلم أني مصاب بداء السكري. أتريد قتلي؟!

- حسنًا ريدبول خالي من السكر، بارد وينعش القلب.

يبتسم رائد ابتسامة عريضة، ولا يرد على أبو فهد وينظر أمامه، يتوقف أبو فهد عن الابتسام ويتكلم بنبرة جادة لكن لطيفة:

- لم تقل لي رأيك؟

- في ماذا؟

- في عطري الجديد، ألا تشمه؟

يقترب أبو فهد من رائد حتى يشم عطره. تظهر علامات عدم الارتياح على وجه رائد وهو يحاول شم أبو فهد.

- ها، ما رأيك؟

- جميل. ما هذا؟

- ياسمين على بخور على عود، خليط ساحر، أليس كذلك؟ اشتريته من محل يلماز، عطر جديد اسمه «نفحة روح».

يبتسم رائد ابتسامة صفراء محاولًا مجاراة أبو فهد في حديثه السخيف:

- تمام.. تمام.

يصمت أبو فهد ثم ينظر إلى رائد بعيون لا تخلو من الشفقة:

- رائد.. أنا أعلم ان النفسية في الحضيض من بعد ما حدث لمريم. وما زاد الطين بلة هو رحيل زوجتك بعدها.

ينظر رائد نحوه بعيون متخمة بالحزن والغضب في آن واحد، دون أن يتكلم ليستكمل الآخر:

- وأعلم أنك لا تزال تلوم نفسك، لكن ما باليد حيلة. هذا قضاء الله وقدره. المباحث قاموا بواجبهم وبحثوا عنها لشهور طويلة.

يلف رائد وجهه إلى الأمام، حينها يرى أن ابنته مريم تقف على ناصية الشارع الآخر. بعيدة، وحيدة، تنظر إلى أبيها بنظرة صامتة مرعبة، في تلك اللحظة يختفي صوت أبو فهد في أذني رائد ويتحول إلى همهمات

مكتومة.

يتمعن رائد في ابنته والحزن يملأ عينيه، وكأنه يرى حلمًا بعيدًا، مستحيل التحقق، وفجأة يعود صوت أبو فهد:

- رائد؟

يتوقف رائد عن النظر أمامه ويلتفت إلى أبو فهد.

- رائد. أسمعت ما قلته لك؟

يبحث بعينيه عن ابنته مرة أخرى، حينها لا يجد ابنته.

- أقول لك.. اخرج من حالة الحزن واليأس التي أنت فيها. شوف حياتك. تزوّج مرة ثانية. كوّن لك أسرة ثانية.

يقاطعه رائد:

- وأنا أقول لك.. اتركني في حالي. كل واحد فيكم يرمي المواعظ والنُّصح علي وكأنه يشعر بما أشعر به، كأنه يدري أكثر مني بحياتي. أنا لم أطلب منكم النصيحة، لم أطلب منكم المساعدة.

يصمت أبو فهد ومن ثم ينظر نحوه:

- معك حق. أنا المخطئ. أعتذر إليك. عن إذنك.

يقف أبو فهد ويغادر ليدخل بقالته، يظل رائد جالسًا وحده ثم يخرج الهاتف من جيبه وينظر إلى شاشته ليجد رسالة من رقم غير مسجل. «أين أنت؟».

***

بعد مرور بضعة ساعات وأمام عمارة مهجورة.. تقف سيارة مرسيدس صفراء كلاسيكية الشكل يبدو أنها صُنعت في فترة الثمانينات، يترجّل منها رائد، يتلفّت حوله ليتأكد من أن لا أحد يراقبه، يغلق باب السيارة ويتجه إلى داخل العمارة المهجورة.

في الطابق الرابع من العمارة المهجورة، وفي إحدى الشقق الفارغة والمهترئة، يوجد كرسي خشبي قديم لا يجلس عليه أحد، موضوع في وسط صالة الشقة. من بعيد.. يسمع أصوات ضرب ولكم يليها صوت رجل يتألم.

يرى رجلًا طويل القامة يدفع برجل آخر متوسط الطول ويجعله يجلس على الكرسي رغمًا عنه، الرجل الطويل هو نايف، شاب في العقد الثالث من عمره، بينما الجالس على الكرسي هو محمود، كانت ملابسه ملطخة بالدماء، وجهه متورم من الضرب، من الواضح أن نايف انهال عليه باللكمات لعدة دقائق، يهدده قائلًا:

- اجلس ولا تتحرك ولا تتكلم.

يرد محمود:

- يا نايف.. والله العظيم لا أدري.

يحاول محمود الوقوف، لكن نايف يقاطعه، ويجبره بقوة على الجلوس:

- قلت لك لا تتكلم ولا تتحرك. إذا استمررت في الكذب.. لن تلوم إلا نفسك.

- ورب الكعبة لم أكذب عليكم، لم أسرق شيئًا منكم ولا أجرؤ على ذلك.

- أنت المسؤول الوحيد عن الخزنة، فما تبريرك لاختفاء مبلغ كبير منها؟

- نايف، سنين طويلة وأنا أعمل معكم، لمَ أسرقكم الآن؟

يأتي صوت منصور من بعيد:

- سؤالك جميل.

يلتفت نايف ومحمود نحو منصور، وهو طويل القامة، يمسك بولاعته ليشعل السيجارة التي في فمه. عمره ٤٥ عامًا، ذو شارب كبير، وعيون حادة كعيون الصقر. من الوهلة الأولى تشعر أنه يضع كحلًا في عينيه، لكن عند التمعن، تكتشف أن رموشه كثيفة ليس إلا، يسحب منصور نفسًا عميقًا من سيجارته ثم ينفث الدخان في الهواء:

- سؤالك جدًّا جميل.. وإجابته أجمل.

يقترب منصور من محمود قائلًا:

- أعتقد أنك تتذكر لولا؟ أليس كذلك؟

يهز محمود رأسه بالنفي. يكمل منصور حديثه:

- هي كلبة ابنة أخي الكبير غانم، إيمان. أكيد تعرف غانم. أليس كذلك؟

يهز محمود رأسه بالإيجاب، يكمل منصور حديثه وهو يقترب شيئًا فشيئًا من محمود:

- غانم جلب لولا لابنته ايمان كهدية في عيد ميلادها السادس، إيمان كانت في قمة السعادة. فهي أحبت لولا حبًّا ليس له مثيل. أنا شخصيًّا كنت أغار من لولا. في أي مكان تذهب إليه إيمان معها لولا. إلى الجمعية إلى الحديقة إلى المستشفى، لولا معها. تخيّل أن أباها حاول إقناعها أن دور السينما لا تسمح بإدخال الكلاب، لكن إيمان لم تقبل الأمر ورفضت الذهاب إلى فيلم سوبر ماريو بسبب أن لولا لن ترافقها. تمر السنوات ويزداد تعلق إيمان بلولا. وفي إحدى المرات، في يوم بدا عاديًّا للغاية. مزّقت لولا فم إيمان عندما كانت تقبّلها. لولا نهشت -حرفيًّا- جزءًا من شفاه إيمان من دون سبب، دون سابق إنذار! إيمان الآن تعيش بوجه مشوه تنتشر فيه الغرز. أما لولا فكان الموت من نصيبها. طبيعي.. أبوها لم يقدر على رؤية ابنته تتألم دون أن يشفي غليله، لكن حتى بعد قتل الكلبة.. لا يزال أخي غانم يتساءل: ما الذي حدث للولا؟ ما الذي جعلها تغدر برفيقتها التي لطالما أحبتها ودافعت عنها؟ في رأيي أن لولا كان تمثل طوال الوقت أنها تحب إيمان، وأن غدرها وعضها لفم إيمان هو دليل واضح على طبيعتها الحيوانية، فالكلاب حتى وإن كانت أوفياء، لكنها في النهاية ستظل حيوانات.

يمسك منصور بوجه محمود بعنف:

- وأنت مهما مثّلت أنك أمين معنا، لكنك في الأول والأخير مجرد حيوان. فأجب عن سؤالي أنا ونايف.. أين المال يا حيوان؟

- صدقني، صدقني يا منصور، لم أسرق شيئًا.

يدفع منصور بمحمود ليسقطه على الأرض، حينها يركله نايف عدة مرات ويلكمه بعنف.

يأتي صوت رائد من الزاوية بعيدًا:

- هل أتيت في وقت غير مناسب؟

ينظر منصور خلفه ليراه واقفًا يشاهد ما يفعلانه، فيضحك ويتجه إليه فاتحًا ذراعيه:

- أهلًا بالزعيم.. منذ متى وأنت تقف هنا؟

يسير رائد باتجاه منصور:

- أنا هنا قبلك أصلًا.

يحتضنه رائد بقوة، ثم ينظر منصور نحوه والفرحة تملأ عينيه:

- لا، بجد. منذ متى وأنت هنا؟

- الأهم أنني أتيت قبل أن تقتلا هذا المسكين. ماذا فعل بالضبط؟

- ليس بمسكين، صدقني. هذا أخبث من أفعى الكوبرا.

توقف نايف عن لكم محمود مخاطبًا رائد:

- ١٠٠ دولار اختفت من الخزنة، وهذا الحيوان هو المسؤول عنها. يحاول إقناعنا بأنه بريء ولا يعلم شيئًا عن سرقة المبلغ.

- كل هذه الجلبة بسبب ١٠٠ دولار!

- والله لو كانوا ١٠٠ فلس، سنخرج المبلغ من أنفه، اخرج أنت من الموضوع، ليس لك به شأن.

يرد عليه منصور:

- كيف لا شأن له!؟ لولا رائد لما كانت هناك خزنة أموال من الأساس، صدقني.

ثم ينظر نحو رائد ويقول له بصوت منخفض:

- أحضرت المبلغ؟

يمد رائد يده الممسكة بالظرف البني –نفس الظرف الذي سلمته لولوة له– ويقدمه لمنصور، فيأخذه ويكمل حديثه لنايف وهو ينظر نحو الظرف ويعد المال الذي بداخله:

- لولا رائد، والله العظيم لما كنت أدخلت ابنتك مدرسة خاصة، كنت رميتها في مدرسة عامة مع الرعاع.

بعد عد المال، نظر منصور نحو رائد وهو يغمز له، ثم اتجه نحو محمود الجالس على الأرض ملطخًا بالدماء.

- محمود، أنت مثل أخي الصغير، حتى شنبك يذكرني به، لكن الله يرحمه توفي وهو في ريعان الشباب، ولا أريدك أن تواجه نفس المصير، أخبرني أين الـ ١٠٠ دولار؟

- والله العظيم لا أكذب عليك. أنا مستحيل أخون الأمانة وأسرق منك. ولا حتى أفكر فيها.

يتأفف منصور، ثم ينظر نحو رائد، وبعدها ينظر إلى محمود مرة أخرى:

- هل تعلم من هذا؟

ينظر محمود نحو رائد بصمت، حينها يتحدث منصور بنبرة غاضبة:

- سألتك سؤالًا.. هل تعلم من هذا؟

هز محمود رأسه بالإيجاب لكن الخوف واضح في عينيه، فاستطرد منصور:

- أخبرنا ما الذي تعرفه عن هذا الشخص؟

يجيب محمود بنبرة قلقة:

- أعلم أنه..

- أنه ماذا؟

يبلع محمود ريقه ويكمل:

- أعلم أنه يعمل لديك.. هو المسؤول عن.. عن تخليص أمورك العالقة.

- مثل ماذا؟ أجبني بكل صراحة، لا تخف.

ينظر محمود بقلق شديد نحو رائد، ومن ثم ينظر نحو منصور:

- أعلم أنه يغتال الناس مقابل المال.

ينظر منصور نحو رائد مبتسمًا:

- واو!

ثم ينظر نحو محمود.

- بالضبط ! إنه يغتال الناس مقابل المال، لكن ليس أي ناس يا صديقي، إنه يغتال المجرمين فقط، وليس أي مجرمين. بل أي مجرم أنا آمر بقتله، أي مجرم أرى أن موته سيعود لي بالفائدة.

ينظر منصور نحو رائد:

- أليس كذلك يا رائد؟

لا يجيبه. يتجه منصور نحو محمود:

- هو خجول قليلًا. لا يحب أن يتفاخر بمهارته في القتل. لكنك نسيت أمرًا مهمًّا يا محمود.

يقترب منه بخطوات بطيئة:

- إنه خبير في استخدام الأسلحة والقنابل والسكاكين..

يضع منصور أصبع السبابة من يده اليمنى على رقبته ويحركه وكأنه يشير إلى نحر الرقبة، ويصدر مع الحركة صوتًا من فمه. ثم يكمل حديثه بعد حركة «نحر الرقبة» والصوت:

- يقدر في أقل من دقيقة أن يخلع رأسك بسكينه، صدقني.

يبتلع محمود ريقه من القلق، وينظر نحو منصور تارةً ونحو رائد تارةً أخرى. ثم يكمل منصور حديثه وهو يقترب من محمود شيئًا فشيئًا:

- هذا الشخص شارك في حروب كثيرة، هنا وبالخارج، ليس فقط لخبرته الطويلة في ذبح الحيوانات مثلك.. لا، بل لأنه أيضًا خبير في التحقيقات، بنظرة واحدة يستطيع أن يعرف ما إذا كان الشخص الذي أمامه يكذب أم يقول الصدق.

يقف منصور أمام محمود وينظر في عينيه بصمت للحظات ومن ثم ينادي على رائد بصوت عالٍ:

- رائد.. تعال.

يقترب رائد من منصور. يخاطبه منصور دون النظر إليه:

- أحتاجك في خدمة.. أريدك أن تتأكد لي هل هذا الحقير يكذب عليّ أم يقول الصدق.

يبتعد منصور عن محمود، حينها يقترب رائد منه ويخفض جسده وكأنه سيركع ليدنو من وجه محمود الجالس على الأرض. يحدق رائد في عيني محمود ووجهه الملطخ بالدماء. يزداد خوف وقلق محمود، تطول النظرات بين الطرفين. يبدو أن رائد قد أدرك كذبه، لكن اختار ألا يفضحه حتى لا يقتله منصور، يتوقف عن التحديق فيه ورجع إلى الخلف، ثم قال لمنصور:

- إنه يقول الحقيقة.

يقف منصور بجانب رائد ويضع ذراعه على كتفه، ينظر نحو محمود ضاحكًا:

- رفعت الجلسة.

ويكمل متجهًا إلى رائد:

- أنت الوحيد في الدنيا الذي أثق بكلامه..

ثم يشير إلى محمود بأصبعه:

- وأنت.. انكتب لك عمر جديد.

ويفرقع بأصبعه، حينها يقوم نايف بمسك محمود من رقبته وإجباره على الوقوف، ليقترب منه منصور قائلًا:

- تأكدنا أنك لم تسرق، لكن في النهاية هناك فلوس سرقت. وبما أنك المسؤول عن الخزنة.. فلا بد أن تدفع الثمن، الثمن أنك تعمل لدينا حتى تعوض ما سرق.

- أنا أعمل من الساعة ٧ صباحًا حتى الـ ٦ مساءً.

- ليس كافيًا، ستعمل حتى بعد الساعة ٦ مساءً.

ثم يخاطب رائد:

- هل تريده يعمل كصبي لديك؟ يساعدك في مهامك مثلًا؟

يصمت رائد فيكمل منصور:

- ها؟ لا؟

ثم ينظر نحو نايف:

- هل تحتاجه في مصنعك؟

- لا، لا أحتاج مثل هذه الأشكال عندي، لكن ألم تقل إن حارس فيلتك عاد إلى بلاده؟

- نعم، أيوب.. أيوب راح.

وكأنه وجد الحل يقول لمحمود:

- هل توّد أن تكون أيوب؟

يتعجب محمود:

- أيوب؟!

يدفعه منصور ناحية نايف ويقول بصوت عال:

- من الليلة أنت ستشتغل كحارس لبيتي حتى يعود أيوب، فهمت؟ نايف اذهب به إلى الفيلا وعلّمه ماذا يفعل.

يجذبه نايف من ملابسه:

- تعال معي.

يأخذ نايف محمود بعيدًا ويشده بعنف. يلتفت منصور نحو رائد مبتسمًا، ويضع ذراعه على كتفه ويبدآن بالمشي معًا:

- ها؟ هل أتعبك هذا الأخير؟ كم جلست في شقته؟

- ساعة تقريبًا.

- يا ستّار! ساعة؟!

- بعدما عرفت ماذا فعل في ابنة جاره.. كان لا بد من أن أعذبه بشكل مختلف عن البقية.

- أوكي.. أوكي، واضح أنك شفيت غليلك فيه.

يصمت رائد. يكمل منصور:

- حسنًا فعلت.. المهم أنها ارتاحت بعدما رأيت ماذا فعلت بجثته.

- كانت تبكي.

- (منبهرًا) لا؟

- أقسم بالله.

- صادق يا عزيزي، والله كله بميزان حسناتك.

- أي ميزان حسنات تتحدث عنه يا منصور؟!

- ماذا دهاك! نحن لا نقتل الأبرياء يا صديقي. جميع من قمت بتصفيتهم ارتكبوا جرمًا شنيعًا في طفل أو طفلة. وأحيانًا هؤلاء الأطفال كانوا من أسرتهم. جريمة مرت عليها سنوات طويلة دون حساب، وحان الآن وقت الحساب. ووظيفتنا أنا وأنت هي بكل بساطة ترتيب الحساب. لا أكثر ولا أقل، فكل ما نفعله هو في الأساس خير سيجزينا الله عليه. هل هناك خطأ في كلامي؟

يشير رائد إلى الظرف الذي في يده قائلًا:

- المهم. الحساب عندك. اتصل بي إذا كانت لديك مهمة جديدة.

يهم رائد بالمغادرة، ليمسك منصور بيده:

- لا تستعجل يا حبيبي.

يقف رائد وينظر باستغراب نحو منصور الذي يكمل كلامه:

- المهمة الجديدة في انتظارك من الصبح.

- فعلًا؟ طيب... هات ما عندك.

ينظر منصور في ساعة يده:

- عندي الآن غداء في منزل الأسرة. هل تحب الملوخية بالأرانب؟

(٤)

في منزل منصور، يتجمع أفراد عائلته الكبيرة على طاولة الغداء. على رأس الطاولة أخوه غانم ذو الثلاثين عامًا، ذو شارب غليظ، يشبه منصور للغاية لكنه جاحظ العينين وعلامات الصلع تسللت إلى رأسه. وعلى يمينه منصور، وبجانبه رائد، الذي يجلس بجانبه ابن غانم الأكبر، صالح، شاب في التاسعة عشرة من عمره. وعلى الجهة الأخرى من طاولة الغداء تجلس جيهان زوجة غانم، امرأة ممشوقة القوام رغم من تجاوز عمرها الخمسين عامًا، ويتضح خضوعها لمشرط جراح التجميل أكثر من مرة وبالذات في منطقة الشفاه التي تبدو متورمة كإطارات السيارات. بجانبها تجلس ابنتها الوسطى، منى، التي لم تتجاوز ١٤ عامًا من عمرها وأختها الصغيرة إيمان ذات الأعوام الثمانية، والتي رغم تشوه وجهها، إلا أن البراءة والنعومة تطلان من عينيها الصغيرتين.

أمام أفراد الأسرة مجموعة كبيرة من الأطباق التي تحتوي على كل ما لذ وطاب. فتجد ملوخية بالأرانب بجانب طبق الأرز الأبيض مع الشعيرية، وفي الزاوية يوجد طبق كبير يحتوي على دجاجات محمرة يسيل لعابك إذا رأيتها، وبجانبه طبق من البازلاء الخضراء مع المرق الأحمر مع طبق آخر من المحاشي كورق العنب والكرنب المحشي والفلفل المحشي، ناهيك عن طبق آخر غني باللحوم مع صينية كبيرة تحتوي على الخبز الأبيض، كل هذه الأطباق تحوم حولها مجموعة من السلطات الخضراء المتنوعة كالفتوش والتبولة والكينوا. سيزداد وزنك بضعة كيلوجرامات إذا نظرت فحسب إلى هذه المائدة الغنية.

يتحدث غانم عن أحوال البورصة وكيف أن السوق في انهيار مستمر، ليدخل صالح في النقاش ليدلو بدلوه عن البيتكوين وكيف أنها هي عملة المستقبل ولا بد من تداولها على نطاق أوسع. الضجر واضح على وجوه بقية أفراد الأسرة. ينظر رائد نحو إيمان التي تبتسم له، ليبادلها الابتسام. تضحك له إيمان، فيتشجع رائد ويخرج عن وقاره للحظات فيقوم بعمل حركات مضحكة بوجهه، تعلو ضحكات إيمان. تنظر إليها والدتها جيهان ثم إلى رائد. يبدو عليه الاستياء، حيث كانت نظراتها تجاه إيمان حادة ثم قالت:

- إيمان، ألم أقل لكِ من العيب الضحك على مائدة الطعام؟

تتجهم إيمان وتتناول طعامها بصمت. ينظر رائد تعجبًا نحو جيهان التي ترمقه بنظرة لا تخلو من الاشمئزاز.

***

بعد انتهاء الغداء يجلسان في مكتب غانم، حيث جلس منصور على كرسي جلدي كبير أمام مكتب عريض. المكتب خصص لعمل غانم في الحقل الدبلوماسي. ينشغل منصور في هاتفه النقال ويطالع فيديو لأحد المشاهير يتحدث عن موضوع القاتل المتسلسل الذي ظهر في البلاد. وفي الزاوية، ثمة رفوف امتلأت بالكتب السياسية والاجتماعية. يقف رائد أمام الكتب ويبدو عليه الملل. يخاطب منصور:

- من الواضح أن جيهان لا تحبني أبدًا.

- لا تحبك؟ بالأحرى هي تكرهك.

يلتفت رائد نحوه:

- لماذا؟ هل تعلم ما أفعله؟

يوقف منصور الفيديو الذي كان يشاهده بالهاتف وينظر نحو رائد متعجبًا:

- هل جننت؟ بالطبع لا.

- لماذا تكرهني إذن؟

- ولم يهمك إذا تكرهك أو تحبك؟ لا تأبه لهذه العجوز الشمطاء.

يقترب رائد من منصور ويرمقه بحدة. فتتغيّر ملامح منصور قائلًا:

- حسنًا. حسنًا. تكرهك لأنها تراك السبب.. السبب في..

- السبب في ماذا؟

- تعتقد أنك السبب في اختفاء ابنتك.

وقعت كلماته على رائد كالصاعقة، فحاول منصور تلطيف الجو:

- لا تهتم لها. عمليات التجميل أثرت على مخها، صدقني. المهم، اجلس وأخبرني ما رأيك فيما يحدث حاليًا؟

يجلس أمام منصور متسائلًا:

- ماذا تعني؟

- أعني الاخبار التي انتشرت في الصحافة والإعلام عنك.. عن القاتل المتسلسل.

- اخفض صوتك يا مجنون!

يبتسم منصور:

- لا تقلق، هذه الغرفة محصنة. من المستحيل أن يسمعنا أحد. هل تعلم أنني تعاطيت الكوكايين هنا ذات مرة مع غانم ووالدنا كان في الغرفة المجاورة؟ يا لها من ذكريات. ألف رحمة ونور عليك يا أبو غانم.

يقطع حديثهما صوت طرق على الباب فيرد منصور بصوت عال:

- ادخل.

تدخل منى وإيمان وخلفهما شخص ضخم الجثة لكن وجهه طفولي. تقول منى:

- سنغادر الآن يا عمي.

- إلى أين يا حبيباتي؟

- إلى النادي.. ألا تعلم أننا مشتركتان في نادي السباحة؟

- واو! كم أنا فخور بكما، تعاليا وأعطياني قبلة قبل أن تغادرا. هيّا.

تركض منى وإيمان نحو منصور وتقبلانه. ينظر منصور نحو الشخص الواقف عند الباب:

- كيف حالك يا بركات؟

- نحمد الله على نعمه الكثيرة يا سيد منصور.

ينظر منصور نحو رائد:

- هذا بركات. صديق قديم للعائلة. لا أستغني عن خدماته أبدًا.

يومئ رائد مبتسمًا:

- أهلًا وسهلًا، بركات. تشرفنا.

- الشرف كله لي يا أستاذ.

تهم منى وإيمان بالمغادرة، يستوقفهما منصور:

- ألن تعطيا قبلة لعمكما رائد؟

تقف كل من إيمان ومنى، وبعد لحظة من التردد، تقبل منى خد رائد الذي ابتسم لها ابتسامة عريضة، أما إيمان فظلت متسمرة في مكانها، فينبهها منصور:

- ها، إيمان؟ اعطي قبلة لعمك رائد.

- أخاف من ماما، فقد أخبرتني ألا أقترب من عمي رائد.

توبّخ منى أختها الصغرى:

- اصمتي يا بلهاء. المعذرة يا عم رائد.

- عادي، لا داعي للاعتذار.

تأخذ منى أختها إيمان وتغادران الغرفة، ينظر بركات نحو رائد ومن ثم نحو منصور قائلًا:

- هل تأمرني بشيء يا أستاذ منصور؟

فيرد عليه منصور:

- لا، شكرًا يا حبيبي.

يغلق بركات الباب. ينظر منصور نحو رائد بنظرة كلها شفقة، ثم يقف متجهًا إلى الباب ليغلقه بالمفتاح. يتجه منصور نحو المكتب لكن هذه المرة يجلس أمام رائد على الكرسي المقابل له، لحظات من الصمت، ثم يسأله رائد:

- ماذا؟

- هل انت نادم؟

- (متعجبًا) نادم؟

- نادم على ما نقوم به؟

- قتل المتحرشين بالأطفال؟ لا، طبعًا. هذا الشيء الوحيد الذي يمنعني من الانتحار، أصبح هدفي في الحياة هو سفك دماء كل من سوّلت نفسه أن يهتك براءة طفل. نظرة عيون هؤلاء الحثالة وهم بالرمق الأخير هي دافعي أن أستيقظ كل يوم، صوت أنفاسهم الأخيرة وهم مختنقون بدمائهم هي من تشجعني على أن أحيا بكل صراحة يا منصور. قتلهم هو ما يهوّن عليّ فقدان ابنتي الحبيبة. أرى خاطف ابنتي في كل متحرش قتلته!

- هل تعلم لما سألت هذا السؤال؟

- ماذا؟ هل تفكر في الاعتزال؟

يبتسم منصور:

- لا، فالمال الذي نكسبه من هذه العمليات من الصعب رفضه بصراحة.

- إذًا ما السبب؟

- لأنني أراك يومًا بعد يوم في غاية التعب، وكأن كل عملية قتل تقوم بها تسحب شيئًا من روحك.

- لا، الموضوع ببساطة أنني كبرت في السن يا منصور، لست شابًّا كما كنت بالسابق. عمليات القتل هذه تحتاج لصحة وقوة جسمانية جبارة.. وأنا..

يقاطعه منصور:

- وأنت ما شاء الله ما زلت في قمة قوتك الجسمانية الجبارة. ماذا دهاك يا رجل؟ صدقني، فقط احلق رأسك كله مع تشذيب بسيط للحيتك مع صبغة سوداء من حلاقنا العم إدريس وستبدو أقل من عمرك بـ ٢٠ سنة.

يضحك رائد، ليتبعه منصور في الضحك وأكمل:

- هذا ما أود رؤيته، اضحك يا رجل وكفاك حديثًا عن التعب والشيخوخة، بذمتك ألا تتذكر ماذا حدث منذ شهرين؟

- منذ شهرين؟

- نعم، مدرب الكونغ فو الذي قتلته؟ من فينا يستطيع قتل مدرب كونغ فو؟!

يتذكر رائد المشهد حينما كان مطروحًا على الأرض ملطخًا بالدماء وفوقه مدرب الكونغ فو، رجل ضخم الجثة، أصلع، بلا لحية أو شارب، يبدو في العقد الرابع من عمره. تتساقط الدماء من رأسه الأصلع، فمن الواضح أنهما تعاركا للتو بشكل عنيف ومؤلم للاثنين. يخنق المدرب رائد بعنف، يبدو أن رائد سيفقد

الوعي من شدة الاختناق، يسيل اللعاب من فم المدرب ليتساقط على وجه رائد، ليشيح بوجهه ليرى درعًا مدببًا مرميًّا بجانبه. يبدو أنه جائزة قدمت للمدرب في أيام شبابه تكريمًا لنجاحاته في الكونغ فو. يمد رائد يده ليمسك بالدرع ليغرسه في فم المدرب بقوة، فتتساقط الدماء من فمه بغزارة على وجه رائد.

يبرر رائد ما حدث قائلًا:

- لحُسن حظي أنه لم يكن قويًّا بما فيه الكفاية.

يرد منصور متعجبًا:

- لم يكن قويًّا! طيب، لا تنسَ المجزرة التي قمت بها وحدك في منزل آل دخشوم.

- (متعجبًا) آل دخشوم؟

- نعم، منزل خليل آل دخشوم في منطقة الدرماء، منزله المطل على البحر.

- أووه.. تذكرت. يا لها من ليلة مجنونة.

- مجنونة جدًّا.

في هذه الليلة كان رائد متوترًا جدًّا حيث اختبأ داخل خزانة ملابس ضيقة، مظلمة للغاية وسط ملابس معلقة، ممسكًا بسكينه الكبير واضعًا إياه بالقرب من صدره، يستمع إلى ضوضاء بالخارج، من الواضح أن هناك أكثر من شخص في الغرفة. بدا القلق جليًّا على وجه رائد، فهو لم يكن مستعدًّا لمواجهة أكثر من شخص. هو متحرش واحد عليه قتله الليلة. لم يكن يتوقع أن يجد المتحرش برفقة أصدقائه، يا لها من ورطة!

يمسح رائد العرق من على جبينه بكُم قميصه ثم يضع السكين في جيب بنطاله، ليخرج بدلًا منه مسدسًا، ويمد يده إلى الجيب الآخر ليخرج منه كاتمًا لصوت المسدس، يلف رائد كاتم الصوت على فوهة المسدس. أثناء ذلك، نسمع صوت أحدهم بالخارج.

- قتلني البرد، هل لديك شيء أرتديه يا خليل؟

- افتح الخزانة.. هناك وشاح لونه أحمر.

تظهر علامات الهلع على وجه رائد. فيبدأ بلف كاتم الصوت بسرعة على فوهة المسدس، لكن من التوتر يسقط المسدس بين قدميه.. يسمع صوتًا بالخارج:

- وشاح؟! أريد جاكيت يا حبيبي.

يفتح شخص ما باب خزانة الملابس، يتسمر رائد في مكانه ناظرًا بذعر نحو الشخص الذي فتح باب الخزانة. بعد لحظات من الصدمة والنظرات المتبادلة بصمت، يصرخ الرجل بصوت عالٍ. حينها يخرج رائد السكين من جيبه وينقض عليه ويطعنه في صدره المرة تلو الأخرى. تتناثر الدماء على وجه رائد. يفزع خليل –الذي كان يشاهد التلفاز– ويقفز على رائد محاولًا منعه من الاستمرار في طعن صديقه. كان هناك شخص ثالث مستلقيًا على السرير يدخن سيجارة ماريجوانا، فيفزع هو الآخر ويمسك بالأباجورة الموضوعة بجانب السرير ويرميها على رائد. تصطدم الأباجورة برأس رائد الذي يتوقف عن طعن الشخص الأول –الذي يسقط صريعًا- ليلكم خليل لكمة قوية تلو الأخرى، لكن الشخص الثالث يأتي وينهال بالضرب على ظهر رائد وعلى جوانبه. يتحد خليل ومن معه في ضرب رائد، الذي يهوي بيده الممسكة بالسكين لتخدش وجه خليل، يرجع خليل إلى الخلف. يقوم من معه بضرب وجه رائد بكف يده، فيفقد رائد توازنه، وتسقط السكينة من يده ويسقط هو إلى داخل الخزانة بقوة.

يحاول خليل التقاط السكين، ليمد رائد يده إلى المسدس –الذي كان على أرضية الدولاب من الداخل- ليمسكه بسرعة ويطلق رصاصة تخترق رأس خليل الذي سقط على الأرض صريعًا. يصوب رائد المسدس نحو الشخص الثالث الذي يقفز بعيدًا ويختبئ خلف السرير. يطلق رائد رصاصتين لكنهما تصيبان السرير وتتناثر قطع القطن من ثقبي السرير.

يتمكن الشخص الثالث من الهروب من الغرفة. يتأفف رائد ويهم بالوقوف ومطاردته، لكن قبل أن يخرج من الغرفة يلتقط السكين الموجود على الأرض.

يخرج رائد من الغرفة، يلتفت حوله ليجد باب غرفة اهتز للتو، يبدو أن الشخص الثالث خرج من هذا الباب. يركض متعبًا باتجاه الباب ليرى أنه باب غرفة مجلس يتواجد فيه ٨ أشخاص بالإضافة إلى الشخص الذي هرب للتو من الغرفة. الأشخاص الثمانية من الواضح أنهم كانوا يتعاطون المخدرات في هذه الجلسة، ينظرون جميعهم مصدومين إلى رائد الذي يزداد خوفًا وهلعًا.

يرفع رائد المسدس ليطلق الرصاصات تلو الأخرى لتصيب الأولى رأس شخص لتسقطه صريعًا، ثم يصوبه نحو الثاني ليطلق رصاصة تخترق رقبته، ليجثم على الأرض وهو ينزف، يحاول رائد تصويب المسدس نحو البقية، إلا أنهم بدأوا برمي الأطباق وطفايات السجائر نحوه، تضرب طفاية سجائر في وجه رائد ليترنح ويرجع إلى الخلف ويكمل تصويب مسدسه نحو باقي الأشخاص ويطلق الرصاص بشكل عشوائي للغاية. تخترق الرصاصات أجسام ٤ من الأشخاص الذي سقطوا على بعضهم البعض متألمين، يحاول شخص آخر حماية نفسه بصينية معدنية، يصرخ مستنجدًا برائد:

- عندي أطفال، لا تذبحني أرجوك، لم أفعل شيئًا.

ينظر رائد نحو قدمي الرجل ليطلق رصاصة على قدمه اليسرى لتخترقها، يسقط الرجل الصينية من يديه ليصبح ظاهرًا بالكامل لرائد. يطلق رائد رصاصة اخترقت عين الرجل اليمنى ليسقط صريعًا.

يلتفت رائد ليرى شخصًا آخر يركض مسرعًا باتجاهه محاولًا الاصطدام به، حينها يصوب المسدس ليطلق رصاصة تخترق جبهة الرجل الذي يسقط صريعًا. يرمق الباقين ليرى مجرد مجموعة من الاشخاص المصابين، فيصوب المسدس تجاههم للإجهاز عليهم. يضغط الزناد، لكن يكتشف أن ذخيرة المسدس قد نفدت. ينظر الجميع نحو بعضهم لتتغيّر علامات الخوف على وجوههم إلى علامات الارتياح معتقدين أنهم لن يموتوا، لكنه يخرج السكين من جيبه. يلتفت ليغلق باب الغرفة خلفه مستعدًّا لمواجهة كل من في الغرفة.

بعد دقائق معدودة، يفتح باب الغرفة ووجهه وملابسه ملطخة بكتل من الدماء، وخلفه كومة من الجثث مرمية في زوايا الغرفة. الدماء لطخت جدران الغرفة لتحوّل لونها من الأبيض إلى الأحمر. يبدو الإنهاك واضحًا عليه. حبات العرق على جبينه اختلطت مع بقع الدماء، لا نعرف إذا كان هذا دم رائد أم دم ضحاياه.

بعد هذه المجزرة، يتجه رائد إلى الغرفة التي كان للتو فيها، ويقف أمام جثة خليل، يخرج من جيبه صورة شخصية لطفلة –يبدو أنها في الخامسة من عمرها– ويضعها بجانب رأس خليل الميت، يضع يده في جيبه الآخر ليخرج الكاميرا الفورية لكنه يراها قد تحطمت، يتأمل بحزن نحو الكاميرا المحطمة، ثم يخرج من المنزل.

يكملان حديثهما عن تلك الليلة حيث يضحك منصور بصوت عالٍ:

- يا له من موقف! لكن لو حدث لغيرك، لمات في أقل من دقيقة.

- الحظ ساعدني لا أكثر.

تزداد قهقهات منصور:

- لا حظ ولا يحزنون، مهارتك في استخدام السكين والمسدسات هي من جعلتك تتفوق تلك الليلة، ١١ شخصًا ماتوا في ليلة واحدة، معظمهم كانوا شباب يا شايب!

- معظمهم كانوا أبرياء، لم يقوموا بأي جرم يستدعي القتل.

- هل سمعت بالمثل الذي يقول «من جاور السعيد يسعد»؟

- وبعدين؟

- ومن جاور الحثالة مصيره إلى الزبالة.

- (ساخرًا) الله! كلامك حكم يا منصور.

- صدقني. لطالما وددت أن أصدر كتابًا ألخص فيه خبرتي في الحياة، حتى تستفيد منه الأجيال القادمة.

- تستفيد منه في النذالة أليس كذلك؟

- بالضبط.

يضحكان بصوت عالٍ، ثم يسأله رائد:

- دعك من هذا الكلام كله وأخبرني.. ما المهمة الجديدة التي تريدني القيام بها؟

- ذكرتني، لقد وصلتني رسالة غريبة المعالم.

- ماذا تعني؟!

يضع منصور حقيبته على المكتب ويخرج منها ورقة. يعطيها لرائد قائلًا:

- وجدت هذه الرسالة في مكتبي، أحدهم وضعها مقفلة على مكتب السكرتيرة.

- وهل قرأتها السكرتيرة؟

- لا تقلق، سوزان في جيبي.

يفتح رائد الرسالة ليقرأها:

«أنت سبيلي الوحيد للخلاص من هذا الجحيم. أنت الوحيد الذي بمقدوره انتشالي من عقدة الذنب، من بؤرة البؤس التي أعيش فيها الآن. كل هذا بسبب شخص كان غاليًا علي جدًّا، لكنه الآن بات وحشًا حقيرًا، سافلًا منحطًا، أمقت النظر إليه. بالرغم من قربه مني، لكنني أريده مقتولًا اليوم قبل الغد. أرجوك ساعدني.. أرجوك.. أنتظرك في هذا العنوان....».

يتوقف رائد عن القراءة قائلًا:

- هذه المنطقة معروفة بالأثرياء.

يهز منصور رأسه. يعود رائد إلى قراءة الرسالة:

«مع هذه الرسالة.. ستجد ٤٠ ألف دولار».

يخرج منصور المبلغ من حقيبته ويضعه على المكتب. يرى رائد المبلغ الكبير، يتبادلان النظرات بصمت. يعود رائد إلى قراءة الرسالة:

«وسأعطيك ضعف المبلغ عند انتهائك من المهمة التي أعتقد انك تعرفها. قابلني في العنوان المذكور وستجدني، أتمنى أن تجدني، وإن لم تجدني فاسأل عن نور. حينها ستجدني».

يضع رائد الرسالة على المكتب. يأخذها منصور ويشعل النار فيها بالولاعة ويرميها في سلة المهملات، ثم يقول:

- ما رأيك؟

- هل تفكر فيما أفكر فيه؟

- إنه طعم؟ شخص يتربص بك للقبض عليك؟

- أو لقتلي، وهذا المبلغ الكبير ما هو إلا وسيلة لإغرائنا تجاه المهمة.

- ممكن.. احتمال.. لا أستبعد هذا الأمر.

يصمت منصور للحظات، من الواضح أنه يفكر في خطة ما، فيبادره رائد:

- فيم تفكر؟

- دعني أذهب بنفسي إليها لأرى ما الأمر. لا داعي لأن تذهب أنت.

- لا يا منصور، أنت تعلم اتفاقنا بأن أقابل الضحية قبل القيام بأي مهمة.

- أدري.. أدري.

- هذا الأمر الوحيد الذي يشجعني على القيام بالمهمة من الأساس يا منصور، أن أرى الحزن والألم في عيونهن، هذا ما يجعل دمي يغلي، وهذا ما يدفعني لقتل المتحرشين من الأساس، إذا ذهبت أنت وأنا لم أقابلها، لن أقدر على قتل المتحرش.

- أعلم بهذا يا رائد، والله أعلم، لكن..

- دعك من نور هذه، ولننتظر مهمة أخرى.

- هناك مهمة أخرى، لكن..

- لكن أنت طمعان في ضعفي المبلغ، صحيح؟

- لا، لكن من كلامها يبدو أنها بالفعل في موقف صعب جدًّا. إن لم نقم بأي فعل لإنقاذها لعل مكروهًا يحدث لها، حينها سيكون الذنب ذنبنا، أليس كذلك؟

يصمت رائد للحظات وهو ينظر نحو منصور، يلتفت رائد إلى يساره، ليرى ابنته مريم جالسة على كرسي في زاوية المكتب. تلعب مع دبها الوردي الصغير. يتأملها بحزن.

ثم يقول منصور:

- رائد؟

يلتفت رائد نحوه فيكمل:

- هل أنت معي؟

يهز رائد رأسه بالإيجاب ومسح وجهه بيديه:

- أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم.

- أنا لدي اقتراح.

يسمع رائد صوت ضحكات مريم، ليلتفت مرة أخرى نحو الزاوية ليراها جالسة على الكرسي تلعب بدبها، لكن هذه المرة تسيل الدماء منها. يتلطخ دبها الوردي بالدماء. تتساقط قطرات الدماء على الأرضية. يحدق رائد في الدماء بعيون متخمة بالحزن.

يعلو صوت منصور:

- رائد؟

يلتفت إليه بسرعة فيسأله منصور متعجبًا:

- ماذا دهاك؟

يصمت رائد للحظات ثم يهز رأسه وهو ينظر إلى الأسفل:

- لا شيء، لا تقلق علي. أنا بخير.

يصمت منصور مكتفيًا بنظرة شفقة نحو رائد.

يرفع رائد ناظريه إلى منصور بصمت ثم إلى الزاوية التي كانت فيها مريم لكن لا يجدها. يعاود حديثه مع منصور قائلًا:

- أخبرني، ما اقتراحك؟

(٥)

في السابعة والنصف من مساء اليوم نفسه، يجلس رائد في سيارته المرسيدس الصفراء بالقرب من ناصية إحدى المناطق السكنية الفخمة والتي تعج بالبيوت العريقة لكبار العائلات.

يرفع رأسه لينظر بتمعن نحو منزل كبير فاخر التصميم على بعد أمتار بسيطة. المنزل رمادي اللون، يتضمن طابقين، حوله سور حديدي لكن من الواضح أن هناك حديقة كبيرة خلف السور وخارج المنزل.

بعد مشاهدة المنزل، يترجل من سيارته، يلتفت يمينًا ويسارًا، ليتجه ببطء نحو المنزل. يقف عند السور المحيط بالمنزل، ليلاحظ حينها وجود كاميرا مراقبة بالقرب من الباب الرئيسي، يمد يده ببطء ليفتح سور المنزل.

يتقدم ويدخل إلى حديقة المنزل، يلتفت يمينًا ويسارًا لعله يرى أحدًا. فجأة يُفتح باب المنزل، يلتفت نحو الباب. ليظهر من خلفه رجل ملتحٍ ضخم الجثة ذو كرش كبير بارز إلى الأمام. يبدو أنه في أوائل العقد السادس من عمره، يرتدي جلبابًا طويلًا أبيض اللون. يخرج من المنزل مرتعبًا وهو ينظر لرائد بتعجب:

- من أنت؟ من أنت؟ من سمح لك بالدخول؟

يرتبك رائد:

- عفوًا، أعتقد أنني في العنوان الخطأ.

- من أنت؟ وعن أي عنوان تبحث؟

ينظر رائد نحو المنزل:

- أليس هذا منزل رقم ٤ في شارع ١٠ ضاحية رابح المنياوي؟

- بلى، صحيح.

يتعجب رائد. يحاول أن يستوعب الموقف:

- أنا أبحث عن..

- تبحث عن من؟

يبتسم رائد ابتسامة عريضة محاولًا تخفيف وطأة الموقف المربك:

- عفوًا، أنا أبحث عن نور.

- نعم، أنا الحاج نور عبد السلام.. ماذا تريد؟

يُصدم رائد. لا يعلم بماذا يرد. فقد كان يتوقع أن يرى سيدة تدعى نور، وليس رجلًا ملتحيًا بكرش ضخم. يتمعن فيه محاولًا أن يستوعب أكثر ما يجري:

- حاج نور، ألم ترسل رسالة محاولًا التواصل مع..

يقاطعه نور وتزداد عصبيته بشكل واضح:

- لم أرسل رسالة لأحد! من أنت؟ أخبرني الآن وإلا اتصلت بالشرطة.

يتعجب رائد. يزداد توترًا، فهو يشعر بأن الوضع غير مريح وأن هذا الشخص لا يعلم بحقيقة قدومه بالفعل. فهو ماهر في اكتشاف الكذب ولكن الحاج نور لم يكن يكذب. يبدو أنه فعلًا لم يرسل هذه الرسالة! يزداد ارتباك رائد، لكن سرعان ما يبدأ في تغيير نبرة صوته محاولًا إخفاء ارتباكه:

- أعتذر عن سوء الفهم. أنا أيمن عبد العزيز، موظف التعداد السكاني.

يخرج رائد بطاقة هويته المزيفة من جيبه والتي تظهر فيها تفاصيل توحي بأنه يعمل في وزارة التخطيط. يمسك الحاج نور بالبطاقة وينظر فيها. يكمل رائد حديثه:

- أتيت لمنزلك اليوم لأننا نجري مسحًا لجميع المنازل في البلاد للمشاركة في تعداد السكان لهذا العام. وأعلم أنه تم التواصل معنا من قبل أحدهم في هذه الضاحية من أجل القيام بمسح شامل لجميع البيوت التي تم تجاهل تعدادها في الأسابيع الماضية، وأنت من ضمن هذه البيوت، لكن يبدو أن الوقت غير مناسب، أعتذر.

- وهل أنت معتاد على اقتحام البيوت ليلًا من أجل التعداد؟

- لم أقتحم بيتك يا أستاذ، لقد دخلت حديقة منزلك بهدف طرق الباب ليس أكثر. أعتذر عن الإزعاج.

يهم رائد بالمغادرة لكن يوقفه الحاج نور:

- لا.. أنا أعتذر عن أسلوبي الفج.

يرجع الحاج نور بطاقة الهوية لرائد الذي يمسكها ويضعها في جيبه. يكمل نور حديثه:

- لسنا معتادين أن يزورنا أحد في منتصف الليل من دون علمنا.

يرد عليه متعجبًا:

- الساعة لم تتجاوز الثامنة مساءً!

ينظر الحاج نور في ساعة يده، ومن ثم ينظر نحو رائد مبتسمًا:

- أعتذر، ساعتي البيولوجية معطلة هذه الأيام، إنها ضريبة التقاعد على ما أظن.

يبتسم رائد ابتسامة صفراء، بالتأكيد هو غير مرتاح للرجل. يكمل الحاج نور حديثه مع ابتسامة عريضة.

- تفضل.. تفضل إلى منزلي حتى تقوم بإجراءات التعداد.

ينظر رائد نحو المنزل ونوافذه المغلقة، ومن ثم يلقي نظرة نحو كاميرا المراقبة، ليعيد النظر نحو الحاج نور.

- تمام. أشكرك.

- تفضل.

يسير رائد نحو المنزل وبجانبه الحاج نور، يبدو القلق واضحًا على وجهه، لكنه يخفي قلقه بابتسامة بسيطة.

***

يدخل رائد إلى المنزل ليجده من الداخل قمة في الفخامة والرقي بدايةً من غرفة المعيشة التي تزيّنت بسجادة مزخرفة كبيرة للغاية مع أرائك في أركان الغرفة، أما الجدار فيعلق عليه التلفاز الضخم ذو الـ ٧٥ بوصة، وبجانبه صور الحاج نور أيام عمله في الجيش الحربي منذ سنين طويلة، بالإضافة إلى صور أبنائه.

يمسح رائد الغرفة بعينيه محاولًا فهم شخصية الحاج نور وما يخفيه تحت هذا الأثاث الفاخر. فالاهتمام بالمظاهر والصرف بالآلاف على الأثاث ليس بالشيء الجديد على أهالي هذه المنطقة، لكن ما وراء هذا الأثاث الفخم هو ما يهم رائد الآن.

صور الحاج نور في الجيش الحربي تذكر رائد بنفسه، فهو يعتز بتاريخه في خدمة الوطن لكن هذا يعني أيضًا أن الحاج نور يمتلك خبرة في استخدام الأسلحة ولا سيما المسدسات والبنادق. يشعر رائد أنه لا يختلف عن الحاج نور في هذه النقطة.

يستمر رائد في مسح الغرفة بعينيه، يلاحظ وجود صورتين لشابين على الجدار، أحدهما أسمر بعض الشيء، ذو شعر أسود ناعم مع شارب كثيف. في بداية الثلاثينيات من عمره، يبدو أنه ابن نور الأكبر فقد أخذ منه ملامحه الحادة لكن بشرته السمراء قد تكون من طرف الوالدة على الأرجح. يبدو أن الصورة قد التقطت أثناء رحلة صيد في البحر. فالشاب عاري الصدر، مبتل الشعر، وخلفه البحر الأزرق واسعًا لمدى النظر، لكن أكثر ما لاحظه في الصورة هو عضلات الشاب المفتولة. يبدو وكأنه أرنولد شوارزنيجر أيام شبابه.

أما الصورة الثانية فهي لشاب أصغر في السن، حنطي البشرة، يبدو أنه ما بين الـ ٢٠ إلى ٢٤ عامًا من عمره، شعره أسود طويل يذكرنا بشعر مغنّي الروك، يحمل بين يديه سهمًا وقوسًا. يبدو أنه مهتم برياضة الرمي بالقوس والسهم وفخور بها. يستمر رائد في مسح غرفة المعيشة بعينيه لكن لا يرى ما يدعو للشك، شيء واحد يخلد في ذهنه في هذه اللحظة: من أرسل هذه الرسالة يا ترى؟

يقطع نور تفكيره:

- لم تخبرني..

يلتفت رائد نحوه:

- عذرًا؟

- لم تخبرني.. ماذا تشرب؟

- لا، شكرًا، سأقوم بتعبئة بعض البيانات سريعًا وأخرج.

- لا، لا. أنا أصر. ما رأيك بقهوة سوداء؟

ينظر رائد بهدوء نحوه مبتسمًا على مضض:

- تمام.

- أحسنت، تفضل بالجلوس.

يجلس على الأريكة وفي يديه الأوراق. ليرفع نور صوته بشكلٍ عالٍ:

- روز. تعالي. روز.

تخرج امرأة من الغرفة المطلة على غرفة المعيشة، إنها خادمة المنزل، روز. من الجنسية الهندية، بشرتها سمراء، نحيفة القوام. الهالات السوداء حول عينيها توحي بأنها لا تنام جيدًا. تتقدم بخطى سريعة ملبية نداء صاحب المنزل.

ينمو الشك في خُلد رائد أكثر فأكثر، تطرأ على باله العديد من الأفكار في آن واحد، ربما الرسالة أتت من هذه الخادمة، يشرد رائد بذهنه لوهلة من الزمن ويفكر: هل الخادمة بارعة في اللغة العربية بالدرجة الكافية التي تجعلها تكتب مثل هذه الرسالة المؤثرة. لا أعتقد، لكن مظهرها يوحي بأنها تخفي سرًّا مريبًا. الخوف واضح في عينيها، لكن من كتب الرسالة؟ ولماذا؟ وما المقصود بـ«وإن لم تجدني.. فاسأل عن نور»؟ ماذا يحدث في هذا المنزل يا ترى؟!

تقترب روز لتقف في منتصف غرفة المعيشة أمام الحاج نور قائلة:

- نعم، بابا.

- حضّري كوبًا من القهوة لضيفنا، الأستاذ أيمن.

تنظر روز في عيني رائد بصمت، ثم إلى الحاج نور وتهز رأسها بالإيجاب:

- حاضر، بابا.

تغادر الغرفة، وأثناء ذهابها، يتأمل رائد ذراعيها وقدميها لعله يجد كدمة أو ندبة أو شيئًا يدل على تعنيفها أو تعذيبها، لكن لا. لا توجد أي مظاهر لاستخدام العنف ضدها. يبدو أنها سليمة جسديًّا، إلا أن القلق الواضح على وجهها والسواد الجلي تحت عينيها يوحي من دون شك أنها ليست سويّة نفسيًّا.

يجلس نور على الكرسي الفخم الموجود بجانب الأريكة التي يجلس عليها رائد ويقول:

- تفضل، ما البيانات التي توّد معرفتها من أجل التعداد؟ هل توّد معرفة رقم بطاقتي الشخصية؟

يقلّب رائد في الأوراق التي أمامه بهدوء، ثم يخرج من جيبه قلم حبر أزرق ويبدأ بالكتابة:

- لا، هذه البيانات مسجلة لدينا. نود أن نعرف كم شخصًا يسكن في هذا المنزل؟

يمد الحاج نور يده إلى علبة السيجار الموضوعة على الطاولة، يفتحها ويخرج سيجارًا بني اللون كبير الحجم. يبدو أنه من النوعية الفاخرة التي لا تراها إلا بين أصابع أيادي الأثرياء. يضع الحاج نور السيجار في فمه وقبل أن يشعله، ينظر نحو رائد:

- الدخان لا يضايقك، أليس كذلك؟

ينظر رائد بصمت للحظات نحو نور، يفهم أنه يلعب معه لعبة نفسية بالسيجار الذي يجعل شكله أهم وأرقى منه. يبتسم رائد:

- لا، أبدًا.

يهم نور بإشعال السيجار. يجيب على رائد أثناء تدخينه للسيجار:

- تريد أن تعرف كم شخصًا يسكن في هذا المنزل؟ أنا، بالطبع. ومعي أبنائي، عزام وشاكر، وزوجة ابني عزام، بالإضافة إلى خادمتنا روز. كانت لدينا خادمة أخرى تدعى أبيجيل لكن انتقلت إلى رحمة الله منذ شهرين.

يسجل رائد البيانات بهدوء. يفكر مليًّا في كلامه. هل وفاة الخادمة أبيجيل له علاقة بالرسالة؟ وأين عزام وشاكر وزوجة عزام؟ هل جميعهم خارج المنزل الآن؟ أسئلة كثيرة تدور في باله، ولكنه يستمر في

حديثه:

- وما هي أعمارهم؟

يفكر الحاج نور للحظات:

- تبًّا لكبر السن. اعذرني يا أخي، لا أذكر بالتحديد ما هي أعمار أبنائي، تخيّل؟! دعني أذهب لأسألهم.

يهم الحاج نور بالوقوف. يستوقفه رائد:

- لا داعي للتعب يا حاج. يمكنك فقط إبلاغي بأعمارهم بشكل تقريبي.

يقف الحاج نور بالرغم من كلام رائد:

- لا، لا. لا بد أن يتم تسجيل بياناتهم بشكل دقيق. لا نستطيع الكذب على الحكومة يا عزيزي. دقيقة وأعود إليك.

يغادر غرفة المعيشة ليدخل إلى الغرفة التي خرجت منها روز سابقًا. يظهر القلق والتعجب على وجه رائد، يشعر بعدم الارتياح حيال ما يحدث، وأن نور نفسه يتستر على أمر ما. تصرفاته مريبة رغم أنه لم يكذب حتى الآن إلا أن لغة جسده توحي بأنه يخفي سرًّا، لكن بما أن الحاج نور كان يعمل في الجيش مسبقًا فلعله بارع في أساليب الخداع والمراوغة بشكل يصعب على رائد مواجهته.

تمر ثوان هادئة حتى يظهر فجأة صوت من بعيد، ينظر رائد نحو الغرفة التي دخلها الحاج نور ليسمع صوت همسات تخرج منها. يبدو أن هناك شخصًا ما يتحدث مع الحاج نور، أو روز تتحدث بصوت خافت مع أحدهم. الأصوات غير واضحة أبدًا. كل ما يسمعه همسات خافتة بشكل مريب. يتعجب للأمر، فيقف ممسكًا بالأوراق والقلم، ينادي بصوت عالٍ:

- يا حاج نور؟

لا يجيبه الحاج نور، تتوقف الهمسات للحظة. تزداد حيرته، ثم تعود الهمسات من جديد لكن بوتيرة أسرع.

يقترب رائد ببطء من الغرفة، صوت الهمسات يزداد، يسمع صوت نور جليًّا وهو يوبخ أحدهم. يبدو أنه منزعج من أمر ما، لكن كلامه غير واضح حتى الآن، يكرر النداء:

- يا حاج نور؟

يقترب أكثر فأكثر لعله يسمع ما يصدر داخل الغرفة من نقاش، لكن فجأة يخرج الحاج نور مبتسمًا حاملًا عدة جوازات سفر، وهو يقول:

- ٣١ و ٢٤.

يتعجب رائد:

- عفوًا؟

- أعمار أبنائي. الأكبر عزّام ٣١ عامًا، شاكر ٢٤ عامًا.

- وزوجة ابنك؟

- ماذا عنها؟

- كم عمرها؟

يصمت الحاج نور قليلًا ثم يجيب:

- ٢٨ أو ٢٧.

ينظر رائد نحو الحاج نور بصمت للحظات ومن ثم يرفع الأوراق لكتابة ما قاله الحاج نور، متسائلًا:

- ما اسمها؟

- من تقصد؟

يرفع رائد رأسه باستغراب:

- أقصد زوجة ابنك، عزام، ما اسمها؟

- آسيا، اسمها آسيا أحمد، لماذا وقفت يا أخي؟ تفضل بالجلوس.

- لا، أعتذر يا حاج. تأخرت عن بقية المنازل. لدي أكثر من..

يقاطعه الحاج نور ويقترب منه ويضع يده على ذراعه:

- لا يا أستاذنا، ضروري أن تشرب القهوة. أرجوك.

يرفع الحاج نور صوته عاليًا:

- روز.

لتأتي مسرعة ممسكة بصينية عليها كوب قهوة، ويبدو عليها التوتر. يبتسم لها رائد على مضض، يقول نور:

- تفضل، تفضل بشرب القهوة.

يمسك رائد بكوب القهوة، يقرّبه من فمه. حينها يردف الحاج نور قائلًا وهو مبتسم:

- ستعجبك القهوة جدًّا، صدقني.

يتوقف رائد عن محاولة شرب القهوة وينظر نحو الحاج نور بصمت. يلاحظ رائد أن العرق يتصبب على جبين الحاج نور بالرغم من أن وجهه يشع بالابتسامة. يدرك رائد بأن ما قاله الحاج نور عن القهوة هو كذبة. القهوة لن تعجب رائد! أبعد رائد كوب القهوة عن فمه وأعاد وضعه على الصينية. تتعجب روز وتنظر نحو الحاج نور الذي يستغرب هو الآخر قائلًا:

- ماذا؟ ألن تشرب قهوتك؟

يبتسم رائد:

- هل من الممكن أن أدخل الحمّام؟ أعتذر يا حاج.. بطني ترغمني على دخول دورة المياه بمجرد شم رائحة القهوة.

ينظر إليه بتعجب، لكن سرعان ما يخفي تعجبه بابتسامة صفراء:

- طبعًا، طبعًا، أنا متفهم. أعشق القهوة شخصيًّا لكن فعلًا تأثيرها أقوى من أي مُسهل.

يضحك نور ضحكة لا تخلو من التوتر، ويكمل:

- الحمّام في نهاية الغرفة..

ثم يشير لروز أن ترشده إليه، تهز روز رأسها بالإيجاب، لتسير إلى نهاية غرفة المعيشة حاملة الصينية وعليها القهوة، ويسير خلفها رائد.

يتلفت رائد حوله متأملًا بقية أرجاء المنزل بعيون باحثة عن أي شيء مريب، لكن بلا جدوى. بعد لحظات من السير، تقف روز أمام باب خشبي أسود اللون، لتلتفت نحو رائد:

- الحمّام، بابا.

يبتسم لها رائد شاكرًا.

يفتح باب الحمّام، يلتفت نحوها لتنظر إليه بخوف وتوتر، وكأنها تستنجده بعينيها. يتطلع رائد إليها بصمت محاولًا فهم ما تعنيه. فيقطعهما صوت نور من بعيد:

- روز. روز.

تذهب روز مسرعة نحوه تاركةً رائد في حيرة من أمره، ينظر نحو نور الذي كان واقفًا على مسافة بعيدة يحدجه بنظرات حادة. يدخل الحمام ويغلق الباب خلفه.

داخل الحمام، يضع رائد قلمه في جيب قميصه العلوي، ينظر نحو السقف وفي أرجاء غرفة الحمام ليتأكد من عدم وجود أي كاميرا، بعد تأكده من عدم وجود أي أجهزة مراقبة، يخرج من جيبه الأيمن مسدسًا، ومن جيبه الأيسر كاتمًا للصوت، يقوم بتركيب كاتم الصوت على المسدس.

يضع رائد أذنه على الباب محاولًا الاستماع إلى أي ضوضاء بالخارج لكن لا يسمع شيئًا. يضع المسدس (مع كاتم الصوت) في جيبه. ينظر نحو المرآة ليتأكد من أن شكله مرتب ويسحب سيفون المرحاض ليوهم أي شخص يستمع بالخارج بأنه قضى حاجته بالفعل.

يفتح رائد صنبور المياه ويغسل يديه بهدوء، ناظرًا إلى وجهه في المرآة. الغضب واضح في عينيه. يستعد نفسيًّا لمواجهة الحاج نور والتحقيق معه في موضوع الرسالة التي وصلته. يغلق صنبور المياه. يقوم بهدوء بتنشيف يديه بالمنشفة البيضاء المعلقة بجانب الباب.

يفتح رائد باب الحمام، لتأتي لكمة قوية من الخارج تضرب وجهه بعنف. يرجع إلى الخلف ليصطدم رأسه بالمرآة لتتحطم ويتناثر زجاجها على الأرض. أتته اللكمة من فتى مفتول العضلات، حليق الرأس. هو الشخص ذاته المعلقة صورته بالخارج. عزام، الابن الأكبر للحاج نور.

ينقض عزّام على رائد ويلكمه مرةً ثانية وثالثة، ويمسك برأسه ويصدمه بالجدار المرة تلو الأخرى، يصرخ رائد من شدة الألم ويحاول إخراج المسدس من جيبه، إلا أن عزام يمسك بذراعه ويلويها بقوة ويمسك بظهره ليضرب رأسه في صندوق السيفون أكثر من مرة.

يأتي شخص آخر من الخلف. إنه شاكر، أبن الحاج نور الأصغر، الشاب الذي يهوى رياضة الرمي بالقوس والسهم، ويركل رائد بين فخذيه بقوة. يصرخ رائد من شدة الألم. يهوي عزام بيده الثقيلة ليلكم رأسه من الخلف. يصطدم وجه رائد بالمرحاض. يمسك عزام برأسه، ليغلق شاكر المرحاض بالغطاء العلوي الأبيض، حينها يهوي عزام برأس رائد ويضربه بغطاء المرحاض المرة تلو الأخرى، تلو الأخرى، تلو الأخرى.

تتناثر الدماء من أنف وفم رائد. في الوقت نفسه يفتش شاكر جيوب رائد ليعثر على المسدس. يسحب المسدس من جيبه ويريه لعزام الذي اشتد غضبه بعد رؤيته، لتزداد لكماته عنفًا على رأس رائد، بينما يلكمه شاكر بين فخذيه مرة أخرى، لا نسمع صوتًا لرائد. لقد فقد الوعي.

يأتي صوت نور بالخارج:

- أخرجوه من الحمّام، أخرجوه.

يسحب عزام رائد الملطخ بالدماء والمغمى عليه إلى خارج الحمام، ليسقطه أرضًا على سجاد أرضية غرفة المعيشة، لتخرج صرخة مدوية من الخادمة روز. لقد صدمت من هول المنظر. يصرخ شاكر فيها والغضب يشع من عينيه:

- اخرسي يا حمارة.

يتقدم عزام ويلكم رائد مرة أخرى رغم أنه فاقد الوعي. تسيل الدماء أكثر فأكثر من وجهه. اختفت ملامحه وراء كتل الدماء. يقترب نور بهدوء وينظر منزعجًا نحو ما يحدث:

- هل كان يحمل سلاحًا؟

يعطي شاكر المسدس لوالده. يمسكه الحاج نور:

- مسدس مع كاتم صوت؟ هذا الحقير ليس بالهيّن أبدًا.. من بعد ما كشف أن القهوة فيها سم.. علمت أنه حاد الذكاء.

يضع المسدس في جيبه. ويستمر عزام في ضرب ولكم رائد بقوة قائلًا:

- بل هو حاد الغباء بقدومه إلى هنا يا والدي.

- توقف عن ضربه، عزام. الرجل مات. لا داعي لتوسيخ السجادة. أنت تعلم كم كانت المرحومة تحبها.

يرد شاكر متعجبًا:

- مات؟

ينظر الحاج نور باستغراب نحو ابنه شاكر:

- ألا تعتقد أنه مات؟

يتوقف عزام عن ضرب رائد ويركع فوق جسده، ليقرب رأسه من فم رائد لعله يشعر بأنفاسه. ينظر نحو والده:

- لا أسمع أنفاسه.

تصرخ روز صرخة أخرى. ينزعج شاكر أكثر:

- روز، ادخلي إلى المطبخ وإلا ضربتك. ادخلي ودعينا وشأننا.

تغادر مسرعةً لتدخل المطبخ وهي مرعوبة. يتأفف الحاج نور:

- ضع أصبعك على معصمه. جس نبضه يا عبقري.

يمسك عزام بيد رائد ويجس نبضه. تبدو الحيرة واضحة على وجه عزام. ينظر نحو والده وأخيه.

- لست متأكدًا من..

يقاطعه شاكر ويتقدم ليبعد أخيه عن رائد:

- ابتعد أنت. دعني أنا أجس نبضه.

يبتعد عزام. يركع شاكر بجانب جسد رائد ويمسك بيده ليجس نبضه. يسود الصمت للحظات ومن ثم يرفع شاكر رأسه لينظر نحو أبيه، فيسأله والده:

- ها؟ مات؟

- لا.

يرمي شاكر يد رائد لتسقط على الأرض، حينها ينظر نحو أخيه عزّام:

- أاحضر السكين. دعنا نقطعه.

يستوقفهما الحاج نور:

- لا، لا يا أحبائي.

يتعجبان منه. يقف شاكر ويواجه والده:

- لا؟! لماذا يا حاج؟! ألم نتفق على ذبحه وتقطيعه؟

يبتسم نور ويضع يده على كتف شاكر:

- سنفعل فيه أبشع من ذلك. لكن ليس هنا يا حبيبي. ألم أقل لك للتو.. لا نريد توسيخ السجادة. أتريدنا أن نلطخ غرفة المعيشة بدمه القذر ونغضب والدتك المرحومة وهي في قبرها؟

يقترب عزام من والده:

- إذًا أين يا حاج؟

- نفس المكان الذي دفنا فيه وجه الشؤم والنحس.

ينظر عزام بتعجب نحو شاكر، ليكمل نور:

- السرداب لطالما خبأ أسرارنا. لا ضرر من أن ندفن فيه سرًّا جديدًا.

فيقول عزام:

- لكن يا حاج..

يقاطعه:

- لكن ماذا؟

يقترب عزام نحو والده:

- لكن يا حاج.. آسيا لا تزال محبوسة هناك.

يظهر التجهم على وجه نور. يصمت للحظات. يبدو أنه يفكر مليًّا في أمر ما. ينظر نحو ابنه عزام ليرد عليه:

- عادي. دعها تشاهد نتيجة خيانتها لنا. هل لديك رأي آخر؟

ينظر عزام بتعجب نحو أخيه شاكر. يضع الحاج نور يديه على كتفي أبنائه:

- لا داعي للتأجيل. عشمون في طريقه إلينا ومعه برميل من الأسيد الحارق.

يرد شاكر متعجبًا:

- أسيد حارق؟

- طبعًا. حتى نذيب الجثتين. هيا بسرعة.. احملوا هذا الخنزير واذهبوا به إلى السرداب. بسرعة يا أبنائي.

يهم شاكر وعزام بحمل جسد رائد وإخراجه من غرفة المعيشة. يحمل شاكر جسده من ذراعيه، بينما عزام يحمله من قدميه.

***

أمام باب غرفة السرداب، يقترب شاكر وعزام وهما يحملان جسد رائد. يأتي نور ويفتح الباب لهما حتى يدخلا السرداب. بالأسفل سلالم طويلة تمتد إلى الدور الأسفل. ينظر شاكر نحو والده:

- يا حاج، أليس من الأسهل رميه على السلالم حتى ينزل إلى الأسفل بدلًا من أن نحمله على السلالم.

- لا تكن كسولًا يا شاكر. لا أريد توسيخ السلالم.

فيقول عزام:

- السرداب برمته متسخ يا حاج. الدم في كل ركن وزاوية.

- إلا السلالم.. لا داعي لتوسيخ كل شيء يا حبيبي.

- بمقدور روز تنظيفه فيما بعد.

- كُفّا عن تضييع الوقت وانزلا به على السلالم، بلا كسل. يمكنكما تمزيقه كيفما شئتما بالأسفل. اسمعا الكلام.

يصمتان ويكملان عملهما ثم يقول شاكر لأخيه:

- هيا يا حبيبي.. دعنا ننزله رويدًا رويدًا.

ينزلانه على السلالم وهما يحملانه. التعب واضح عليهما ولا سيما أن رائد ضخم الجثة وثقيل الوزن. في السرداب، يخيّم الظلام كل أركانه، لكن ثمة صوت رجفة بكاء. يبدو أن أحدهم موجود بالأسفل، لكن لا يظهر بسبب ظلمة المكان.

يصل شاكر وعزام عند العتبة الأخيرة من السلالم، ليرمي شاكر جسد رائد على الأرضية. يسقط جسده بقوة لينفث الغبار من الأرضية السيراميك بقوة. حينها تخرج شهقة قادمة من زاوية السرداب. ينظر شاكر إلى الزاوية المظلمة ويتحدث إليها:

- هل أنتِ سعيدة الآن؟ بسببك سيموت هذا الغبي. دمه برقبتك أنتِ وحدكِ.

فيقول عزام:

- لا داعي لهذا الكلام الآن يا شاكر.

- هل ما زلت تعطف على هذه الحقيرة؟

ينزعج عزام ويقترب من شاكر والغضب قد تمكّن منه:

- اخرس يا حيوان:

يصيح والدهما بالأعلى:

- اخرسا أنتما الاثنان ولا قطعت لسانيكما.

يصمتان وينظران لوالدهما الذي كان واقفًا بالأعلى. ينزل ببطء على السلالم وهو يدخن سيجاره مستطردًا:

- واحد تجاوز الثلاثين والثاني أطول مني ولكن ما زلتما تتصرفان كطفلين في الحضانة. ماذا بكما؟ هل نسيتما أنكما شقيقان من دم واحد؟

يصل نور إلى عزام وشاكر ويقف بينهما وهو يدخن السيجار. ينظر نحو عزام تارةً ونحو شاكر تارةً:

- لا تجعلا مشكلة بسيطة كهذه تعكر صفو علاقتنا جميعًا.

ثم يلتفت إلى جسد رائد بقرف، ويركله بقدمه. رائد لا يزال فاقد الوعي. يكمل نور حديثه لكن هذه المرة وهو ينظر نحو رائد:

- هذا مجرد خنزير ولا يسوى فلس.

ثم ينظر نحو الزاوية المظلمة التي يصدر منها الأنين:

- أما هذه الساقطة...

يقترب نور ويتجاوز بقدميه جسد رائد المرمي على الأرض ليتجه نحو الزاوية المظلمة. يخرج الولاعة من جيبه ويشعلها حينها ينير وجه آسيا، زوجة عزام، امرأة حنطية البشرة ذات شعر أسود، جالسة على الأرض في زاوية السرداب. آثار الضرب واضحة على وجهها، حيث تنزف الدماء من شفتيها، وعلى عينها اليسرى كدمة زرقاء، وخدوش في وجنتيها ورقبتها. تحدق في نور بعيون متعبة يملأها الخوف والتوتر. يبدو أنها كانت تبكي لساعات وساعات. يكمل نور حديثه حاملًا الولاعة:

- فلا تستحق سوى.. النار.

ينحني ويمد يده الممسكة بالولاعة ناحية وجهها. تفزع آسيا وترجع برأسها إلى الخلف لتبعد عن الولاعة. يضحك ويرجع إلى الوراء مبتعدًا عنها. يقفل الولاعة وينظر نحوها باحتقار:

- لا تقلقي يا زوجة ابني، حسابك لن يأتي اليوم.

يقطع حديثه صوت جرس الباب بالأعلى. يلتفت الحاج نور نحو عزام وشاكر:

- هذا عشمون. دعونا نصعد ونحضر الأسيد.

يهم نور بصعود السلالم. يوقفه عزام:

- وهل نتركه وحده هنا معها؟

يتوقف نور ويلتفت نحو ابنه عزام:

- ماذا؟ هل تغار عليها منه؟

- لا، لكن من الممكن أن يتعاونا سويًّا و..

يقاطعه نور:

- انظر إليه. الرجل يتأرجح بين الموت والحياة. لا أستغرب إن وجدناه ميتًا بعد دقائق.

ثم ينظر نحو آسيا قائلًا:

- أما هذه فلا خوف منها. فهي كالجرذان، القالب مخيف، أما القلب فهو ضعيف، ضعيف جدًّا.

يرن جرس الباب مرة أخرى، يدخن الحاج نور سيجاره ويكمل حديثه:

- دعك منهما وتعال معي أنت وأخوك لنستقبل عشمون ونحضر الأسيد. أريد الانتهاء من الأمر بأكمله قبل صلاة الفجر. لا أستطيع تفويت أدائها بالمسجد وإلا شكّ الجيران بأمري، هيا بسرعة.

يصعد وخلفه عزام وشاكر ويغلقان باب السرداب. يعم الظلام في جميع أرجاء السرداب. لا صوت سوى رعشة خوف وقلق صادرة من آسيا.

بعد لحظات من الصمت، تتحدث آسيا إلى رائد:

- يا أستاذ؟ يا أستاذ؟

لا يجيبها رائد فهو فاقد للوعي تمامًا. تقترب آسيا بهدوء وبطء منه. تنظر في وجهه المغطى بالدماء. تتحدث إليه مرة أخرى لعله يسمعها:

- يا أستاذ؟ هل تسمعني؟

لا يزال مغمى عليه. تقترب أكثر وتزحف نحو جسده لتمد يدها اليسرى محاولةً وضعها على أنفه لتتأكد هل لا يزال يتنفس أم لا، فجأة يمد رائد يده اليسرى ليمسك يدها بقوة. تكاد آسيا أن تصرخ من الفزع لكن تضع يدها اليمنى على فمها لتكتم صرختها.

يشهق بقوة وكأنه يأخذ نفسًا بعد غطسة طويلة في المحيط. يبلع ريقه بصعوبة ويحاول فتح عينيه لكن كتل الدماء تيبست على جفونه، يحرك رأسه تجاهها. يخاطبها من دون أن يفتح عينيه:

- من أنتِ؟

تزيل يدها اليمنى عن فمها، وتجيبه والتوتر قد تمّكن منها:

- أنا.. أنا آسيا.

- آسيا من؟ هل أعرفكِ؟

- أنت لا تعرف من أنا. لكن أنا أعرف من أنت.

- ماذا تقصدين؟

- أنا من كتبت الرسالة. أنا من أحضرتك إلى هنا.

يترك يدها، ويحاول مسح الدماء التي تلطخ وجهه. يحاول فتح عينيه قليلًا:

- كيف علمتِ عني؟ كيف وصلتِ إليّ؟

تبتلع ريقها وتجلس بجانبه والدموع تذرف من عينيها، لتحكي له كيف عرفت طريقه:

- صديقتي ناهد استعانت بك منذ سنة لتقتل زوج أمها. زوج أمها الذي سلب منها براءتها وهي صغيرة، وأنت بكل بسالة فصلت رأسه عن جسده. أعلم أنها أقسمت لكم بألا تحكي ما حدث حتى لا ينفضح أمرها ولا ينكشف أمركم، لكنها أخبرتني منذ ٦ أشهر من دون أن تزودني بأي تفاصيل عنك. كل ما أخبرتني هو أنك فعلت ما كانت تتمنى فعله منذ سنين طويلة. علِق الموضوع في ذهني.. لم أنسَه طوال هذه الشهور، وكنتَ أول من بدر إلى ذهني بعد حدوث المصيبة.

- أي مصيبة؟

- شاكر شقيق زوجي عزام. الحقير تحرش بفتاة في مكان عام، صرخت الفتاة مستنجدة بالناس، لكن الجبان هرب من دون أن يتم القبض عليه. كانت هناك كاميرا مراقبة في الكافيه المقابل. استطاع رجال المباحث تفريغ الكاميرا واستخراج مقطع الفيديو الذي يدين ذاك المتحرش اللعين. بعد مفاوضات بين الأسرتين، بالتحديد بين والد زوجي ووالد الفتاة، تم التخلي عن رفع قضية ودفع تعويض يُسكت أسرة الفتاة. طبعًا الأمر تم من دون رضاها، لكن والدها أصر على الاستغناء عن القيام بأي عمل قانوني، خاصة أن المبلغ الذي دفعه والد زوجي كان يفوق الخيال. أقنع الرجل ابنته بأن تنسى الموضوع وتوافق على التنازل منعًا للفضيحة، وهذا ما حدث بالفعل. لكن شاكر أبى أن ينسى الموضوع بسبب تكبره وعنجهيته، فخطف الفتاة و...

تصمت آسيا وتجهش بالبكاء. يحاول رائد استجماع ما تبقى لديه من قوة للنهوض لكن يعجز عن ذلك. يظل مطروحًا على الأرض ناظرًا إليها رغم بقع الدماء التي جفت على عينيه.

- اغتصبها؟

تهز رأسها بالإيجاب وتمسح الدموع من على وجنتيها. تكمل حديثها:

- اغتصبها أكثر من مرة ثم قتلها، ودفن جثتها هنا في السرداب، بعلم والده وزوجي.. زوجي الدنيء الذي خيّب ظني وضرب بعرض الحائط كل القيم والمبادئ والأخلاق. كل هذا لمراضاة والده المختل وشقيقه النجس. الثلاثة لم يرحموا هذه المسكينة، هذه المسكينة التي لا ذنب لها.

تجهش آسيا بالبكاء وتنظر نحو زاوية بعيدة في السرداب، تمسح دموعها وتشير إلى الزاوية:

- إنها مدفونة هناك في الزاوية.. رائحة موتها تسري ليس في السرداب فحسب، بل في كل أرجاء هذا المنزل اللعين. هذا المنزل الذي يستحق الحرق.

يهم رائد برفع نصف جسده العلوي، حينها تسانده آسيا على الجلوس. يفتح عينيه وينظر نحوها:

- وحينها.. تواصلتِ معي؟

- أجل. كلمت صديقتي وطلبت منها كيفية التواصل معك. لم أجد طريقة سوى أن أرسل الرسالة لأستنجد بك. حتى تنقذني من هذه العائلة الحقيرة. زوجي لم يصبح زوجي. بل أصبح حيوانًا ينصاع لأوامر سيده، والده المجنون. حاولت إقناعه بأن يسلم أخاه للعدالة، لكن لم أواجه سوى التحقير والتعنيف، الطامة الكبرى عندما تصنت شاكر على هاتفي وقرأ رسائلي مع صديقتي وعلم بأمرك وبموضوع تواصلي معك لإنقاذي وفضحهم، هنا واجهت كيلًا من السباب والضرب واللكمات والتعذيب، حتى الخادمة روز حاولت الدفاع عني، لكنها ارتعبت من شاكر وأبيه المختل. كنت أعد الأيام حتى تصل. لا أعلم ما الذي كنت ستفعله، لكنني كنت متأكدة بأنك ستنجدني بشكل أو بآخر.

- وهل شكلي الآن يوحي بأني سأنجدك؟

تحاول أن تزيل بيديها كتل الدم المتكومة فوق عينيه، ونفض التراب عن ملابسه المتسخة بالدماء، لترى بقعة من الحبر على جيب قميصه، تتأملها بتعجب. يرى رائد بقعة الحبر على قميصه، يمد يده في جيبه ليخرج قلم الحبر السائل الذي تحطم وسال منه بعض الحبر. ينظر إلى رأس القلم ثم يقول:

- أريد أن أرى الجثة.

***

تزيل آسيا قطعًا من سيراميك أرضية السرداب، يبدو عليها الخوف والقلق. قطع السيراميك لم تكن موضوعة بشكل محكم لذا إزالتها كانت في غاية السهولة. من الواضح أن الأسرة لم تأبه لدفن المغدورة بشكل مناسب حيث سيتم التخلص منها بعد قليل عن طريق إذابتها في الأسيد.

بعد الانتهاء من إزالة بعض قطع السيراميك، تظهر كومة ضخمة من الرمال. تسحب كيسًا ضخمًا كان تحت الرمال بداخله جثة الفتاة. تتوقف عن الإمساك بالكيس وتضع يدها على فمها من شدة الحزن والألم. حينها يأتي رائد من خلفها، يمد يده ليفتح الكيس ليرى جثة الفتاة وقد بدأت بالتعفن حيث برزت الديدان من وجنتيها. يشاهد الجثة وهو يعتصر ألمًا، ثم ينظر إلى القلادة المعلقة على صدرها ليرى مفتاحًا ذهبيًّا نحيفًا.

بالأعلى، خارج السرداب.. وفي غرفة المعيشة حيث وصل إليهم عشمون، وهو رجل نحيف، طويل القامة، أسمر البشرة، أصلع، ذو لحية خفيفة. يبدو عليه الفقر، فملابسه تؤكد أنه لا ينتمي إلى هذا المكان. طغت على ملامحه مشاعر التوتر والريبة، يحدثه عزام:

- يا رجل.. اجلس. لماذا تريد المغادرة بهذه السرعة؟

- أنا أحضرت الأسيد كما أمرني الحاج. انتهى دوري الآن.. سلام عليكم.

يهم عشمون المغادرة، ليوقفه نور:

- يا حبيبي تعال. ما هذا الهراء الذي تقوله؟

يلتفت نحوه عشمون متعجبًا:

- نعم يا حاج؟! أليس هذا اتفاقنا؟

- لا، أبدًا.

يقف نور ويتجه نحو عشمون ليقف أمامه. ينظر له بحدة وهو يخاطبه بنبرة استعلائية:

- الاتفاق هو أن ننفذ الأمر جميعًا مع بعضنا، بداية من إحضار الأسيد، مرورًا بإذابة الجثث، وانتهاءً بنقل بقاياهم ودفنها.

- يا حاج نور، أنت لم تخبرني بذلك مسبقًا.

- وها أنا أخبرك الآن.

يضع يده على كتف عشمون ويهمس له بصوت رقيق وهادئ:

- صدقني أنا احتاجك، لا يغرك شكل أبنائي. إنهم ضعاف القلوب مساكين، لن يقدروا على إتمام المهمة من دون أن تساعدهم، كل العشم فيك يا عشمون.

يرد عزام:

- بمقدورنا أن نسمعك يا حاج.

يوقفه نور بعيون حادة صارخًا:

- اخرس يا حمار.

ثم يتجه بلطف إلى عشمون:

- ها، ماذا قلت يا عشمون؟

يتردد عشمون في النظر بخوف إليهم ثم يهمس لنور:

- طيب.. زوّد لنا المبلغ يا حاج. أنت كريم ونحن نستحق الكرم.

- غالي والطلب رخيص يا حبيبي. سأعطيك الضعف. كل ما أريده منك هو حمل برميل الأسيد والنزول به إلى السرداب، شاكر سينزل معك لا تقلق، وبالأسفل ستقومون بإذابة الجثتين بالأسيد.

- جثتين؟ أنت أخبرتني بأنه توجد جثة واحدة في السرداب، من أين أتت الجثة الثانية؟

- أسئلتك كثرت يا عشمون. خلاص، سأعطيك الضعفين.

- أنا في خدمتك يا حاج.. لكن..

يقاطعه»

- لا أحب كلمة لكن يا عشمون، خلاص، سأعطيك ثلاثة أضعاف المبلغ الذي اتفقنا عليه.

يقول عشمون بدهشة:

- ثلاثة أضعاف!

- وسأزوجك خادمتنا روز لمدة أسبوع واحد، لا.. شهر واحد.

تظهر علامات السعادة على وجه عشمون:

- روز؟!

- على سنة الله ورسوله.

- عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

يبتسم كل من نور وعشمون وينظران لبعضهما بنظرات خبث ولؤم.

- ها، ماذا قلت يا عشمون؟

- قلت إني في خدمتك دائمًا وأبدًا يا حاج نور.

يضحك نور فرحًا:

- عظيم. هيا احمل البرميل، لدينا حوض كبير في السرداب، سنقوم بسكب الأسيد بداخله، ومن ثم نضع فيه الجثث.

- استعنا بالله.

يتجه عشمون إلى باب المنزل حيث يوجد برميل خشبي ضخم، ثم يخلع حذاءه وجواربه ويضعهم بجانب الباب.

يسأله عزام:

- ماذا تفعل؟

- عفوًا، لا أريد أن يتسخ حذائي ولا جواربي. وأنصحكم بالقيام بنفس الأمر.

يرد شاكر:

- لا، شكرًا، لدينا أحذية خاصة لهذا الأمر، مقاومة للانصهار.

- على راحتكما.

- ألن ترتدي حذاء خاصًّا للأمر؟

- هل أحضرتم لي حذاء خاصًّا أنا أيضًا؟

ينظر شاكر وعزام نحو الحاج نور الذي يرد:

- هل مطلوب مني إحضار كل شيء؟ لمَ لم تحضروا حذاءً لعشمون؟

يرد عشمون:

- لا داعي، إن شاء الله ستتم الأمور بخير يا حاج.

يهم عشمون بحمل البرميل لكنه يتوقف للحظات وينادي شاكر:

- لا نستغني عن همتك معنا يا أستاذ شاكر.

يساعده شاكر في حمل البرميل والسير به باتجاه باب السرداب. كان البرميل ثقيلًا للغاية، فسرعان ما ظهر الإنهاك والتعب على عشمون وشاكر وهما يحملانه. فيقول عشمون لعزام:

- ألن تساعدنا يا أستاذ.. بسم الله ما شاء الله على عضلاتك.

فيبادره نور:

- لا، عزام مهمته تجميع بقايا الجثث في أكياس الزبالة.

ثم يوجه حديثه لعزام:

- اذهب الآن إلى غرفتك وارتدِ الملابس التي أحضرتها لك لتقوم بعملك فور سكب الأسيد.

يبدو القلق واضح في عيني عزام، يبدو أنه مرتبك بعض الشيء، لكنه يرد على والده:

- حاضر يا حاج.

يغادر عزام غرفة المعيشة متجهًا إلى السلم المؤدي إلى الطابق العلوي. يخاطبه نور:

- لا تتأخر وكن مصغيًا إذا ناديتك، لطالما ناديت عليك ولم تسمعني وأنت في غرفتك اللعينة.

- حاضر.. حاضر.

يستمر عزام في الصعود على السلالم متجهًا إلى الطابق العلوي، بينما يذهب نور مع شاكر وعشمون. يتجه نور إلى فتح باب السرداب قبل أن يأتيا إليه، ما زال بالأسفل جسد رائد ملقى على الأرض مغشيًّا

عليه. يتفحص المكان للتأكد من وجود رائد، ثم يفسح المجال لعشمون وشاكر وهما يحملان برميل الأسيد.

- احذرا السلم. على مهلكما.

ينزل عشمون على السلالم بهدوء وهو يحمل البرميل من طرف، والطرف الآخر يحمله شاكر، ويلقي نظرة نحو السرداب بالأسفل وهو ينزل على السلالم ليرى جسد رائد المرمي في منتصف السرداب ليتساءل:

- من هذا؟

نور بغضب:

- كفى أسئلة واعمل بصمت.. سأذهب إلى سيارتي لإحضار أكياس القمامة.

يغادر نور متجهًا إلى باب الخروج من المنزل. يستمر عشمون وشاكر في حمل البرميل الثقيل على سلالم السرداب ببطء، ليردد عشمون:

- اللهم أنت المحيي وأنت المميت.. اللهم أنت المحيي وأنت المميت.

- هل جننت؟ ماذا دهاك؟

- لا ضرر من استذكار ربنا الشكور يا أستاذ شاكر.

- تذكره وأنت على وشك القيام بجريمة قتل بعد لحظات؟!

- لا يا أستاذ شاكر، أنا لست بقاتل. أنا هنا لخدمة والدك الفاضل.

- طيب.. اخدمني أنا أيضًا واسكت، الله يخليك.

يستمران في حمل البرميل على السلالم، وعلى عتبات السلم وُضع رأس قلم حبر مفصول وموضوع بشكل مستقيم على عتبة سلمة موجودة قبل السلمة الأخيرة. لم يلاحظ وجودها عشمون، فينزل بقدمه اليسرى الحافية على رأس القلم بقوة ليخترق بطن قدمه، فيصرخ صرخة مدوية ويرجع إلى الخلف.

في اللحظة نفسها تأتي آسيا مسرعة وتسحب بسرعة جسد رائد المطروح على الأرض. يسقط عشمون إلى الخلف ليرتطم بالأرضية بقوة، ويسقط البرميل بقوة على وجهه ليكسر أنفه بعنف. يفزع شاكر الذي كاد أن يسقط هو الآخر على السلالم من الجانب الأمامي لكن ينجح في ضبط توازنه بعض الشيء ليسقط على السلالم بظهره.

يتدحرج البرميل ليصطدم بحائط السرداب ليتحطم جزء منه وينسكب الأسيد على الأرضية ليتلطخ وجه وأيدي عشمون به. يصرخ عشمون ألمًا والأسيد يحرق جلده. ينظر شاكر إلى المنظر بخوف.

في تلك اللحظة كان نور يخرج أكياس القمامة من السيارة وهو يغني مقطعًا من أغنية الأطلال لأم كلثوم، وتبدو على وجهه السعادة: «أعطني حريتي أطلق يديّ.. إنني أعطيت ما استبقيت شيئًا».

يلتوى عشمون في الأرض والدماء تسيل من وجهه ويديه اللتين بدأتا بالانصهار. يبدأ العظم بالظهور تحت جلده المنصهر. يخرج الدخان بكثرة من جلده وهو ينصهر بينما الدماء لا تزال تنزف منه بغزارة.

يفزع شاكر لهذا المظهر ويتقدم بضع خطوات نحو نهاية السلالم وهو يخاطب عشمون:

- عشمون.. ثوانٍ واحضر أبي.. ثوانـ..

تظهر آسيا فجأة من يمين السلم ممسكةً بالمفتاح الذهبي (الذي كان معلقًا على صدر الفتاة المغدورة) لتدبه في عين شاكر اليمنى لتفقعها. يصرخ صرخة مدوية ويسقط على عشمون المرمي على الأرض. يزداد صراخ عشمون وجلد وجهه ويديه ينصهر أكثر فأكثر والدماء تسيل منه بغزارة، يصاب جسد شاكر ببعض من الأسيد ليصرخ هو الآخر من الألم الشديد والدماء تسيل من عينه المفقوعة التي لا يزال المفتاح مغروسًا فيها.

تسرع آسيا نحو رائد الجالس على طرف السلم قائلة:

- هيا بنا.

تحاول آسيا أن تسنده حتى يقدر على المشي بسرعة، ترفع قدميها بحذر حتى لا تلمسا الأسيد المسكوب على الأرضية.

- احذر قدميك.

يسير بحذر معها، يصعدان السلم ببطء بينما شاكر وعشمون لا يزالان بالأسفل يصرخان بشدة من الألم، والدماء تسيل منهما، لا سيما عشمون الذي يستمر العظم بالظهور من تحت جلد وجهه الذائب، بينما يصرخ شاكر بصوت عالٍ محاولًا الرؤية بعينه التي لم تفقع.

- بابا.. بابا.. أين أنت يا بابا؟

كانت روز في المطبخ مرتعبة وهي تسمع صيحات الاستنجاد بالخارج لكنها لا تريد التدخل، فظلت جالسة في ذعر وتوتر.

أغلق نور باب المنزل بالمفتاح ووضعه في جيبه وسار في غرفة المعيشة حاملًا أكياس القمامة، سمع نداء ابنه شاكر من داخل السرداب من بعيد. قال بصوت عالٍ وهو يسير باتجاه باب السرداب:

- أنا قادم يا حبيبي.. صدقني لن أفوّت فرصة مشاهدة جلدهما وهو يحترق.. هذه العاهرة وهذا الحقير.. إياكم والبدء من دوني. أسمعت يا عشمون؟

يقترب من باب السرداب ليرى أمامه آسيا تخرج وهي تسند رائد، يقف نور مصدومًا مما رآه. يحدقان فيه بنظرات يملؤها التحدّي والغضب. يصرخ نور:

- يا ولاد الكلب!

يرمي أكياس القمامة جانبًا ويضع يده في جيبه ليخرج مسدس رائد ويصوبه نحو آسيا ورائد. تسحب آسيا رائد بسرعة ليذهبا إلى جهة اليسار ويدخلا غرفة أخرى، يطلق الحاج نور ثلاث رصاصات لكن لا تصيب سوى الجدار.

دخلت آسيا الغرفة ومعها رائد وأغلقا الباب بإحكام. يمسك رائد بها ويبعدها عن الباب، تخترق الباب عدة رصاصات من المسدس. يرتفع صوت الحاج نور خارج الغرفة وهو في غاية الغضب:

- ماذا فعلتم يا حيوانات!

تسأل آسيا رائد والقلق واضح على وجهيهما:

- ماذا الآن؟

- اصبري.

ينزل نور على سلالم السرداب مفزوعًا ليرى عشمون ميتًا وقد انصهر جلد وجهه ويديه بالكامل، وعلى طرف السلم يجلس شاكر وهو يئن ويرتعش والدماء تسيل من عينه.

- شاكر؟ حبيبي شاكر؟

يرفع شاكر رأسه فيرى وجهه الملطخ بالدماء والمفتاح المغروس في عينه اليمنى. لطخت الدماء عينه اليسرى فلا يستطيع أن يرى والده بشكل جيد، وقد انصهر الجلد على ركبته وذراعيه بسبب رذاذ الأسيد.

- بابا؟

- ابني! حبيبي شاكر.

ينزل نور بسرعة على السلالم ويمسك بابنه، يتألم شاكر بشدة، يسأله:

- ماذا فعلوا بك يا حبيبي!

يحاول الحاج نور أن يسنده ويساعده على النهوض، لكن من الواضح أن شاكر شلت حركته من الصدمة. فأصبح غير قادر تمامًا على الوقوف.

- تعال معي، شاكر. تعال معي حبيبي. أنا هنا.

- بابا..

- يا حبيب أبيك.. لا تخف. أنا هنا.

يحاول نور مساندة ابنه حتى يقف، لكن بلا جدوى، فقد شلت حركته، يخاطبه:

- شاكر، حبيبي. ساعدني. انهض يا حبيبي.

يصرخ نور بصوت عالٍ مناديًا ابنه عزام:

- عزام. يا عزاااام.

كان عزام في ذلك الوقت واقفًا في الحمام وقد أغلق الباب حتى لا يسمع ما يجري بالأسفل، وارتدى ملابس عامل نظافة مع غطاء بلاستيكي يغطي ملابسه، وقفازات صفراء يبدو وكأنها قفازات لغسل الأطباق والمواعين، وفي قدميه يرتدي حذاء أسود طويل العنق. كل هذا من أجل الاستعداد للتخلص من أشلاء الجثث.

يتأمل شكله في المرآة، ثم يبدأ فجأة بالبكاء بشدة، من الواضح أنه يعتصر ألمًا وحزنًا. يتحدث إلى نفسه في المرآة: «ما هذا الذي تفعله؟! ستدخل السجن يا غبي! صدقني أنت لست بقاتل.. أنا لست بقاتل. كل هذا حتى ترضي أسرتك، ماذا عنك.. ماذا عنك؟».

يضع يديه على وجهه ويجهش بالبكاء.

ما زال نور يحاول سحب جسد ابنه شاكر من على السلالم لكنه ثقيل جدًّا. يصرخ نور مناديًا:

- روز. يا روز. تعالي. يا عزام. أحد يساعدني.

في هذه اللحظة تخرج آسيا مسرعة من الغرفة ومعها رائد، ومن أسفلهما في السرداب، يسمع نور خطواتهما، حينها يرمي ابنه شاكر على السلم بسرعة غير مهتم بجراحه ويركض إلى الأعلى حاملًا المسدس، تهم آسيا بإغلاق باب السرداب، حينها يصوّب نور المسدس نحو الباب ويطلق أكثر من طلقة.

تغلق آسيا الباب لكن رصاصة تخترق الباب لتخدش كتفها. تصرخ آسيا وتغلق الباب بالمفتاح وتبتعد هي ورائد بسرعة عن الباب. يحاول نور فتح الباب بقوة لكن بلا جدوى، يصرخ غاضبًا:

- يا قمامة، افتحوا الباب يا حيوانات.

يمسك رائد بآسيا وينظر نحو الجرح في كتفها:

- هل أنتِ بخير؟

تنظر آسيا نحوه بصمت متعجبة من سخافة السؤال، فيقول:

- طيب.. طيب، تعالي معي.

يتجهان نحو غرفة المعيشة بسرعة، تحاول روز فتح باب غرفتها لتطل على رائد وآسيا. تصرخ فيها آسيا:

- أغلقي على نفسك يا روز.

تغلق روز الباب، تتجه آسيا ومعها رائد نحو باب الخروج من المنزل لكنهما يجدانه مغلقًا بالمفتاح، يزداد الخوف في عينيهما. يسمعان صوت محاولات نور لكسر الباب، يسألها رائد:

- هل تعرفين مكان مفتاح آخر؟

- نعم.

- أين؟

يتجهان إلى الطابق العلوي، حيث عزام في الحمام يمسح دموعه، حينها سمع صوتًا صادرًا من غرفته، يتعجب فيلتفت ليفتح الباب فيرى آسيا في غرفته وهي تفتح أدراج المنضدة باحثة عن المفتاح، لتجده بالفعل بين الأغراض في أحد الأدراج. تنظر إلى عزام بعيون لا تخلو من التحدي. تظهر علامات الصدمة على وجه عزام.

- آسيا؟!

يتقدم نحوها، حينها يباغته رائد بلكمة قوية، لا يتأثر بها عزام الذي يزداد غضبه من رائد ويبدأ بخنقه. تركض آسيا نحو عزام وهي تصرخ:

- لا يا عزام!

يلكمها عزام فتسقط على الأرض، وتفقد الوعي. يستمر عزام في خنق رائد:

- سأقتلك بنفسي أيها المسن الحقير.

حينها يضرب رائد عزام بين فخذيه بقوة، يتألم عزام بشدة، ليترك رقبة رائد الذي ينتهز الفرصة ويلكمه في عنقه. يختنق عزام ويهوي بذراعه محاولًا لكم رائد الذي يخفض رأسه ويلكم عزام في صدره المرة تلو الأخرى. يهوي عزام بذراعه اليمنى ليضرب رأس رائد الذي سقط على السرير. يقفز فوقه عزام ويبدأ بلكمه أكثر من مرة، تسيل الدماء من أنف وفم رائد، يخنقه عزام بقوة.

ما زال نور في السرداب يحاول فتح الباب بقوة لكن بلا جدوى. يصوب المسدس نحو المقبض ليطلق رصاصة تحطمه، حينها يستطيع فتح الباب، ويخرج من السرداب ويسمع الضوضاء بالأعلى. ينظر إلى المسدس في يده لكن لا يرضيه كسلاح في هذه اللحظة. إنه يبحث عن اداة قتل أكثر شراسة، فيذهب

مسرعًا إلى غرفة المخزن المجاورة ليفتح صندوق أدوات ويخرج منه منشارًا دائريًّا. تظهر السعادة جلية على وجهه. يخرج ليصعد إلى الأعلى.

بالأعلى في الغرفة، يستمر عزام في خنق رائد الذي خارت قواه:

- مُت يا حثالة.

تسيل الدموع من عيني رائد. يبدو أنه يحتضر من الاختناق الشديد على يدي عزام. وجهه يحمر، اللعاب يسيل من فمه. حينها يسمع صوتًا بجانبه، ينظر إلى يساره ليرى ابنته مريم تقف بجانب السرير وهي تنادي والدها، تحمل بين يديها الدب الوردي، صوتها غير مسموع، لكنها تبدو خائفة على والدها، خائفة أن يموت الآن. ينظر رائد نحوها بعيون ممتلئة بالدموع، لينظر نحو عزام بنظرة تحدٍّ. يمد رائد يديه ليضع أصبعيه في عيني عزام ويحاول فقعهما بقوة، فيصرخ من الألم الشديد. يبتعد عزام ويتوقف عن خنق رائد الذي يتنفس الصعداء، حينها تقف آسيا فجأة قائلة لعزام:

- يا حمار.

يلتفت عزام نحوها ويحاول فتح عينيه بصعوبة، حينها تدبْ المفتاح الذي بيدها في وجهه فيرجع إلى الخلف بقوة، ساقطًا على الأرض بجانب السرير وهو مصدوم:

- ما هذا يا كلاب!

يقف عزام، يفرك عينيه وينظر في المرآة ليكتشف أن هناك مفتاحًا مغروسًا في وجنته. يصدم وهو يرى الدماء تسيل من خده، يرمقها بغضب:

- سأدفنك حية يا حقيرة.

- أنا فعلًا حقيرة لأني قبلت الزواج بحيوان حقير مثلك.

تبصق عليه، فيركض نحوها بغضب، تبتعد عن طريقه في آخر لحظة. ليرى عزام والده أمامه فجأة –والده في ذات اللحظة كان يركض من الخارج إلى داخل الغرفة حاملًا المنشار الكهربائي الدائري الصغير وهو يعمل– يصطدم الأب والابن ببعضهما بالخطأ، ليغرس نور المنشار في بطن ابنه من دون قصد. يصدم نور وهو يرى الدماء تتناثر من جسد ابنه جراء دخول المنشار في بطنه، فيفزع من هول المنظر، بينما جسد ابنه ينتفض أمامه والدماء تتناثر في كل مكان، يحاول إطفاء المنشار لكن من التوتر والصدمة ينسى تمامًا كيف يتم إطفاء المنشار. رائد وآسيا يشاهدان ما يحدث بتعجب.

الدماء تسيل بغزارة من فم عزام وهو يرى والده يغرس المنشار في بطنه. يصرخ الأب مرعوبًا، مصدومًا مما يرى. الدماء لطخت وجهه بالكامل، بينما الدموع تنهمر من عيني عزام، والدماء تسيل من فمه. يزيد صياح الأب وهو يرى ابنه يتمزق امامه بسبب منشاره.

- عزام! ابني!

يضغط أزرارًا عدة بالمنشار، لتزداد سرعة المنشار ويزداد تمزق بطن ابنه وأحشائه التي بدأت بالخروج بسرعة وعنف من بطنه الذي صار مثقوبًا نصفين. يزداد صراخ نور، بينما تتساقط أحشاء ابنه على قدميه. تختفي الحياة من عيني عزام. لينتهز رائد الفرصة ويأتي من خلفه ويدفع جثته الواقفة تجاه والده بعنفه ليصطدما بالجدار الذي خلفهما. ترتمي جثة عزام الثقيلة على جسم أبيه، ويسقطان على الأرض حينها يبدأ المنشار بتمزيق جزءٍ من صدر نور، فيصرخ بشدة والدماء تسيل من فمه وصدره، إلا أن المنشار يتوقف عن العمل بسبب كثرة الدماء والاحشاء التي سدت ماكينته. يبدأ نور بالأنين، لا يزال حيًّا، لكن الجرح العميق الذي في صدره ورؤية جثة ابنه الجاثمة عليه –والذي تسبب في قتله– كفيلان بأن يقضيا عليه.

تقوم آسيا بمساندة رائد والخروج من الغرفة. يتجاوزان كتلة الأحشاء المتكومة على الأرض:

- احذر قدميك.

يبدل رائد نظراته بين كتل الأحشاء والدماء التي غزت الأرضية، ونور الذي أغمض عينيه. يبدو أنه مات.

ينزلان على السلالم. يلتفتان نحو السرداب ليريا جثة شاكر على سلالم السرداب بالأسفل. بينما انصهرت جثة عشمون في الأسيد بشكل شبه كامل.

تتجه آسيا نحو باب المطبخ لتطرقه، حينها تفتح روز الباب، وتحتضنها آسيا بسعادة بقوة. يشاهد رائد ما يجري بعيون تشع بالسعادة، تبادرها روز:

- ماما آسيا.

- ارتحنا خلاص.. ارتحنا، روز.

تنهمر الدموع من عينيهما وهما تحتضنان بعضهما بعضًا، ثم تشير آسيا نحو رائد:

- الفضل يعود لمستر رائد.

- صدقيني.. أنتِ فعلتِ كل شيء الليلة. أنتِ من أنقذتِني اليوم. أشكرك.

تسألها آسيا:

- هل لديكِ مفتاح إضافي آخر للمنزل؟

- نعم، ماما.

تدخل روز المطبخ وتبحث عن مفتاح المنزل. تساعد آسيا رائد على المشي. تهمس له:

- لا تقلق.. أنا على وعدي. نور كان يخزن أمواله في دولابه الخاص. ارتَح على الأريكة وسأحضر لك المبلغ.

تخرج روز من المطبخ ومعها المفتاح، تتجه نحو باب المنزل لفتحه. يقول لها رائد:

- لم أقم بأي شيء، صدقيني.

- لولاك، لما كنت حية الآن.

- ولولاكِ أنتِ، لم كنت أنا حيًّا الآن.

يبتسمان، تفتح روز باب المنزل، لكن فجأة نسمع صوت نور. يلتفت كل من رائد وآسيا ليريا نور متجهًا نحوهما، غارقًا في دمائه ودماء ابنه يعرج بقدمه اليسرى، مصوبًا المسدس نحوهما بيده اليمنى.

- لن... لن تخرجوا من هذا المنزل أحياء يا كلاب.

حينها يظهر منصور، ويدخل المنزل من الباب ليبعد روز عن طريقه ويصوب مسدسه نحوه ليطلق رصاصة واحدة اخترقت جبهة نور الذي سقط على الأرض صريعًا، تصرخ روز من هول المنظر. تلتفت آسيا نحو منصور وعلى وجهها علامات التعجب، بينما ينظر إليه رائد نظرة كلها خيبة أمل. يقول له منصور باستحياء:

- أعتقد أني تأخرت قليلًا.. أليس كذلك؟

- وهذا أنت من اقترح أن تأتي وتسأل عني إذا تأخرت؟! اللعنة عليك يا..

- اصمت، لا تفضحنا أمام الأغراب.

- أنت منصور، أليس كذلك؟

- لقد انفضحنا في البلاد!

- لا تقلق. سركم في بير.

- يبدو أن البئر عميقة للغاية لدرجة أن صديقي يبدو وكأنه خرج للتو من حرب.

- لا، عادي.. مجرد يوم اعتيادي.

يغلق منصور الباب خلفه. يبتسم في وجه روز:

- شاي please.

ترمقه روز متعجبة. يدخل منصور غرفة المعيشة يرى آسيا وجرحها الذي في كتفها والكدمات التي في وجهها ثم يتأمل رائد المضرج بالدماء. يتجه نحو الأريكة ويجلس عليها:

- أخبراني.. ماذا حدث هنا بالضبط؟

تلتفت نحوه آسيا ومعها رائد. تقول آسيا لروز:

- روز، أحضري علبة الإسعافات الأولية.

- حاضر، ماما.

تذهب آسيا نحو المطبخ، يقول لها منصور:

- ولا تنسي الشاي.

لا تكترث روز لكلامه وتدخل المطبخ. يجلس رائد على الأريكة يسأله منصور:

- هل كان طُعمًا كما اعتقدت؟

تنظر آسيا نحو منصور ورائد بتعجب:

- طُعم؟!

يقول لها رائد:

- لا، لا..

ثم يقول لمنصور:

- شقيق زوجها متحرش ومغتصب وقاتل، ووالده وزوجها متآمران معه.. فـ..

يقاطعه منصور وهو ينظر نحو آسيا:

- يا إلهي! مشاكل أسرية من الدرجة الأولى! أعتقد أنك نجحت في حلها، بمساعدتي طبعًا. أليس كذلك؟

تتجه آسيا إلى مغادرة غرفة المعيشة للذهاب إلى الطابق الأعلى. أثناء ذلك تخاطب منصور:

- صحيح، وسأحضر المبلغ الذي اتفقنا عليه.

- لا، يا عزيزتي.

تقف آسيا، وتلتفت نحو منصور:

- لا؟! ستقول لا لـ ٨٠ ألف دولار.

يقف منصور ويتجه نحو آسيا ويقف أمامها:

- وهل تعتقدين اننا نستحق فقط ٨٠ ألف دولار؟

- لقد اعطيتكما ٤٠ ألفًا مقدمًا.

- طبعًا، لكن بالنظر لشريكي الذي عانى الأمرين والنظر إلى عدد الأشخاص الذين تم قتلهم.. برأيي.. أننا نستحق...

يصمت منصور قليلًا ويفكر للحظات ثم يكمل:

- ١٦٠ ألف دولار.. غير الـ ٤٠ ألف التي استلمناها.

- (مصدومة) ١٦٠ ألف!

- نعم. نقدًا وعدًّا.

- يا أستاذ منصور..

- بالنظر إلى هذا المنزل الفخم.. وجثة رب المنزل الله يرحمه ومعرفتي أن زوجك وشقيقه قد توفيا أيضًا، يعني أنتِ الوريثة الوحيدة لهذا العائلة الثرية، أليس كذلك؟

تصمت آسيا وتنظر نحو منصور. كأنها تريد صفعه في هذه اللحظة، لكن تتمالك نفسها وتبتسم ابتسامة صفراء.

تخرج روز من المطبخ وقد أحضرت صندوق أدوات الإسعافات الأولية. تشير لها آسيا إلى رائد. تذهب روز إليه وتفتح الصندوق وتبدأ بوضع الشاش الطبي على جروحه، فيقول:

- سنساعدك في إخراج جثة الفتاة التي قتلوها ودفنوها في السرداب، وسنضع الجثث بشكل يصوّر أنهم تشاجروا وقتلوا بعضهم بعضًا، لتخرجي أنتِ وروز من دائرة الشبهات، أما المال فإذا كان نقدًا فلن يعلم أحد عنه وعن اختفائه.

يوافق منصور على ما قاله مؤكدًا:

- بالضبط، نحن نقدم لكِ خدمة كاملة ومتكاملة يا سيدتي، صدقيني.. والرصاصة التي في كتف حضرتك دليل على أنك كنتِ ستموتين أيضًا في هذه المجزرة الأسرية لولا عناية الرب سبحانه وتعالى ولولا مساعدتنا.

تتابعهما آسيا بعينيها في صمت حتى يضيف رائد:

- سنجعل مسرح الجريمة خاليًا من أي شيء يعود عليك بالضرر، فستتأكد الشرطة أنك بريئة من هذه الجرائم كلها وأنك مظلومة بالفعل. كل ما نود منك أن تمسحي ما تحتويه كاميرات المراقبة.

- لا تقلق، كاميرات المراقبة هنا لا تعمل. نور عطّلها جميعًا قبل إحضار جثة الفتاة إلى هنا.

- وهذا من حظنا السعيد. هيا، أحضري المال يا عزيزتي حتى نشوف شغلنا.

تنظر آسيا بصمت نحو منصور ومن ثم تبتسم له:

- حاضر. لا تقلق. سأعطيكما ما تريدانه. ما فعلتماه لنا يعتبر خدمة كبيرة تستحق التقدير.

يبتسم منصور ابتسامة عريضة:

- ونحن نعشق التقدير يا سيدتي.

تلتفت آسيا نحو روز:

- روز، حضري الشاي للسيد منصور.

- حاضر، ماما.

تغادر روز إلى المطبخ، تنظر آسيا لمنصور وتبتسم له:

- عن إذنكم سأذهب لإحضار المبلغ.

- تفضلي.

تغادر آسيا وتذهب إلى الطابق العلوي. ويبتسم منصور لرائد ابتسامة عريضة:

- يا لها من ليلة جميلة. أليس كذلك يا صديقي؟

يصمت رائد. يلتفت منصور نحو جثة نور المرمية على الأرض:

- هذا هو الوالد. ها؟

- نعم.

- لم يكن هينًا. ها؟

- كان عسكري سابق.

- فعلًا؟ رحمة الله عليه. أنا حزين.

- لماذا؟

- لأنني قتلت زميلًا لي.

يبتسم منصور ابتسامة عريضة، ثم يخاطب جثة نور:

- أراك في الجحيم يا زميل.

يتلفت منصور حوله:

- أين بقية الجثث؟

- هناك اثنان في السرداب.

يلتفت منصور نحو السرداب ويتجه إليه:

- يا ساتر. ما هذه الرائحة؟!

- أحدهم انصهر بالأسيد.

- يا ساتر يا رب.

يطل منصور برأسه:

- هناك جثة واحدة. أين الثانية؟

يجاوبه رائد بصوت عالٍ:

- ركّز. هناك جثة أخرى تحللت في الأسيد أمامها.

ينزل منصور على أول سلمتين من سلالم السرداب ثم يقف:

- هذه الجثة التي أراها يا رائد.

- يا حبيبي هناك جثة أخرى أمامها لشاب عينه مفقوعة.

يرد منصور متعجبًا:

- عينه مفقوعة؟!

يصعد منصور السلالم ويخرج من السرداب قائلًا:

- لا توجد جثة ثانية يا رائد!

- ماذا قلت؟!

حينها يسمع منصور صوتًا صادرًا من غرفة المخزن المجاورة للسرداب، ينظر نحو الأرضية ليرى بقعًا من الدماء تسير باتجاه داخل غرفة المخزن. يتعجب من الأمر. يمد يده ببطء ليدفع الباب قليلًا، حينها يكتشف وجود شاكر واقفًا في المخزن ينزف بشدة والمفتاح مغروس في عينه، ويحمل سهمًا وقوسًا بين يديه. ينظر منصور نحوه مصدومًا، ويرفع مسدسه نحو شاكر لكنه يصوّب السهم بالقوس نحو منصور بسرعة كبيرة ويقذف السهم بقوة. يخترق السهم كتف منصور الذي أسقط المسدس من يده ورجع إلى الوراء بقوة ليصطدم بالجدار الذي خلفه.

يفزع رائد من المنظر. يقف مرعوبًا متسمرًا في مكانه:

- منصور؟!

يلتفت منصور خائفًا نحو شاكر الذي أمسك بسهم آخر ليقذفه نحو منصور الذي ابتعد بسرعة ليصطدم السهم بالجدار ويتحطم. يركض منصور نحو غرفة المعيشة ليقف بجانب رائد:

- أعطني مسدسك.

- ليس معي مسدس.

- يا لها من ليلة شؤم!

يخرج شاكر من المخزن ببطء، ويسير بخطوات مترنحة نحو غرفة المعيشة. يعرج بقوة حيث انصهر اللحم من ركبته اليمنى بسبب رذاذ الأسيد، بينما تسيل الدماء من عينه وذراعيه بغزارة. جسمه يرتعش. اللعاب يسيل من فمه. عينه السليمة ترتجف بشكل مرعب. يحاول التحدث لكن صوته غير مفهوم، يبدو أنه فقد القدرة على النطق بسبب الصدمة وشدة الألم.

يمد شاكر يده إلى ظهره حيث يعلق سلة الأسهم، يأخذ سهمًا ليضعه في القوس محاولًا تصويبه نحو منصور ورائد. تزداد علامات الخوف على وجه رائد ومنصور. في نفس اللحظة، تخرج روز من المطبخ حاملةً صينية عليها كوبان من الشاي. تلتفت لترى شاكر واقفًا أمامها بشكله المفزع.

تفزع روز من منظره المرعب وتصرخ بأعلى صوتها لترمي الصينية على الأرضية فتتحطم أكواب الشاي. ترجع روز إلى الخلف وتسقط على الأرض لتزحف نحو أقدام منصور ورائد لتحتمي بهما.

يستمر شاكر في السير تجاههم ليرفع القوس مستعدًّا لرمي السهم، يغمض رائد ومنصور وروز عيونهم خوفًا. يتزحلق شاكر على الشاي المسكوب على الأرضية، فيسقط على وجهه لينغرس المفتاح بشكل أكبر في عينه، ليلفظ أنفاسه في لحظتها وهو جاثم على وجهه على الأرض.

يفتح رائد ومنصور وروز عيونهم ليروا جثة شاكر على الأرض وبجانبها السهم والقوس، والدماء بدأت تسيل بغزارة أكثر من عين شاكر المثقوبة.

بدا التعجب على وجوههم وهم يشاهدون جثة شاكر مستغربين ما حدث، يأتي صوت آسيا قادمة من الطابق العلوي:

- لم أجد سوى ١٠٠ ألف. أعدكم أن أحضر الباقي الأسبوع القادم..

تصل إلى غرفة المعيشة حاملة حقيبة مملوءة بالمال لترى جثة شاكر لتصدم وتتسمر في مكانها. تنظر إلى الجثة ثم إلى منصور ورائد وروز. يتقدم منصور والسهم مغروس في كتفه:

- لا داعي لإحضار الباقي. مسامحينك، أعطيني الحقيبة الآن حتى نذهب من هنا، أرجوكِ.

(٦)

في الليلة نفسها وفي شقة منصور الخاصة الكائنة في إحدى العمارات المطلة على البحر، يجلس منصور على الأريكة واضعًا فوطة بيضاء في فمه، وأمامه رائد يسحب السهم من كتفه. يصرخ منصور من شدة الألم لكن الفوطة خففت قليلًا من صوت الصرخة، ويحاول رائد تهدئته ويطالبه بالصبر، وينجح في إخراج السهم من كتفه. تسيل الدماء بغزارة من الثقب الموجود في الكتف، يخرج رائد قماشة كبيرة من علبة الإسعافات الأولية التي أمامه ويحاول إغلاق الجرح. يخرج علبة المورفين ليجدها خالية.

- لا يوجد مورفين هنا يا منصور!

يبصق منصور الفوطة من فمه، الإنهاك واضح على وجهه والعرق يتصبب على جبينه:

- ابحث جيدًا.

- بحثت، الزجاجة فارغة.

- طيب، اذهب بسرعة إلى غرفتي ستجد في درج الدولاب علبة كبيرة، فيها أكثر من زجاجة مورفين.

- حسنًا.. اضغط على الجرح بيدك حتى يتوقف النزيف.

- بسرعة أرجوك.

يذهب رائد بسرعة نحو غرفة منصور، يرى الدولاب في زاوية الغرفة، يفتح الدرج ليرى كومة من الأغراض والأشياء المبعثرة في الدرج. يمد يده محاولًا البحث بين الأغراض عن علبة المورفين فيجدها. يلتقطها بسرعة ويغلق الدرج.

يعود مسرعًا نحو منصور، ليجلس بجانبه. يفتح العلبة ليخرج منها زجاجة مورفين. يخرج إبرة من علبة الإسعافات الأولية.

يقول منصور متألمًا:

- الألم سيقتلني.

- تمالك نفسك يا رجل.

يعبئ رائد الإبرة بالمورفين ليحقن بها كتف منصور، الذي يشعر بالراحة ويتوقف عن الأنين، يقول رائد:

- لا بد أن أوقف النزيف.

يضع بعضًا من الكحول الطبي على الجرح، يتألم منصور بشدة، فيضع رائد عدة ضمادات على الجرح، ثم يضع قطنًا على الثقب حتى يوقف النزيف، ويخرج شاشًا طبيًّا من العلبة ويلف كتف منصور الذي نظر نحوه قائلًا:

- أشكرك يا صديقي العزيز.

- لا تشكرني، كلنا في الهوا سوا، انظر إلى وجهي وشكلي المضرج بالدماء.

- لم أتوقع أن نرى هذا الكم من الجنون الليلة، الوغد مشى كالزومبي باتجاهنا، وعينه مفقوعة!

اعتدل رائد في جلسته ليرتاح على الأريكة محدقًا في السقف:

- وماذا كنت ستقول إن رأيت الأب وهو يمزق أحشاء ابنه بمنشار.

- أستغفر الله.. لا، لا.. الحمد لله لم أرَ هذه المجزرة بأكملها، لكنت تقيأت.

- (ساخرًا) تتأثر بسهولة؟!

- طبعًا.. أتأثر إذا رأيت قطة ميتة في الشارع، فما بالك بإنسان؟

- من يسمعك لن يظن أنك قتلت شخصًا اليوم.

- دفاع عن النفس يا صديقي.

همّ رائد بالوقوف ممسكًا بالفوطة الملطخة بالدماء، متجهًا نحو طاولة الطعام ليضع الفوطة عليها، وكانت هناك حقيبة المال التي أخذوها من آسيا، ثم يقول:

- المهم ارتاح الليلة، وأنا سأرتاح أيضًا، وغدًا سنتناقش في المهمة الجديدة.

- ألا تريد أن تبيت عندي الليلة.. هناك غرفة جاهزة لم يدخلها أحد منذ شهور.

- تريدني أن أنام وسط خيوط العنكبوت؟ منذ متى وأنت تملك هذه الشقة؟

- هذه الشقة أملكها منذ ٣ سنوات ولا أدخلها إلا مرة في الشهر، أحيانًا مرتين، أخصصها للسهرات الماجنة، وأحيانًا لقضاء ليلة بعيدًا عن إزعاج الأهل.

- ولمَ لم نذهب إلى الفيلا الخاصة بك؟

- أختي وبناتها هناك الليلة، سيغادرن صباحًا لقضاء عطلة العيد في ميكانوس.

- ذكرتني، العيد بعد يومين.

- العيد بعد يوم يا صديقي، بعد غد.

- من شدة الصدمات التي عشتها الليلة، نسيت في أي زمن نحن، تصبح على خير.

سار رائد بخطى ثقيلة نحو باب الخروج من الشقة، فقال له منصور:

- نم هنا يا رجل، كيف ستذهب إلى شقتك؟

- سأطلب تاكسي.

- احترس من تفتيش الشرطة. إنهم منتشرون في كل مكان بسببك أنت.

- لا تقلق، إذا قبضوا علي سأقول إنك من حرضتني على ارتكاب الجرائم.

- تبيع أخوك يا رائد؟!

يرد ضاحكًا:

- أليست هذه الحقيقة؟! تصبح على خير.

- وأنت من أهله، ولا تقلق، سأعطيك حصتك من المبلغ غدًا.

يومئ رائد برأسه ويفتح رائد الباب ويهم بالمغادرة، يناديه منصور، ويشكره فيبتسم رائد ويغادر الشقة ويغلق الباب خلفه.

***

في الليلة نفسها، وقد وصل عقرب الساعة إلى الواحدة فجرًا، يدخل رائد شقته والإنهاك واضح على كل ذرة في جسده، يغلق الباب خلفه، يمر أمام جدار غرفة المعيشة ليطل بعينيه نحو الصور المعلقة على الجدار، يستمر في السير ليدخل الحمام. يفتح الصنبور ليغسل وجهه، لكن فجأة يتوقف ويغلقه. يصمت للحظات ثم يخرج من الحمام مسرعًا ليعود إلى غرفة المعيشة ويقف أمام الجدار.

يتمعن رائد في الصور المعلقة على الجدار والتي كانت من ضمنها صورته وهو في شبابه مبتسمًا يحمل ابنته مريم بين يديه، وصورة أخرى لابنته وحدها مبتسمة للكاميرا. وصورة أخرى عبارة عن برواز به رسمة طفولية لرائد ومريم تضع يديها على كتفيه من الخلف، وصورة أخرى له أيام شبابه في فترة تجنيده في الجيش.

لكن عين رائد تمعنت بالتحديد في صورة ابنته مريم وحدها وهي مبتسمة للكاميرا. تأمل الصورة ليرى أن مريم كانت ترتدي سلسلة زرقاء في رقبتها عليها حرف ميم. يتذكر أنه هو من صنع هذه السلسلة لابنته خصيصًا، وأنها كانت ترتديها في الحديقة في اليوم الذي اختفت فيه، لكن الأدهى أنه تذكر أنه رآها للتو!

حاول استرجاع ما حدث منذ أقل من ساعة في شقة منصور حين فتح الدرج في غرفته ليرى كومة من الأغراض والأشياء المبعثرة فيه، وهو يمد يده يحاول البحث بين الأغراض عن علبة المورفين. ما زال يتمعن في السلسلة التي ترتديها ابنته في الصورة. يتذكر وهو يفتح الدرج، ويحرك يديه بين الأغراض باحثًا عن علبة المورفين. حينها يتذكر.. يتذكر أنه رأى السلسلة ذاتها داخل الدرج مرمية بين الأغراض المبعثرة. هل هي بالفعل؟ تتسع حدقتا عينيه من الذهول!

تقع هذه الصدمة كالزلزال المدمر في نفسه. يتوقف عن التأمل في صورة ابنته، يلتفت نحو غرفة المعيشة، يحاول السير نحو أقرب أريكة للجلوس لكن خطواته ثقيلة، لا يستطيع التحرك بسهولة من هول الصدمة. يحاول الوصول إلى الأريكة لكنه يسقط على الأرض والصدمة تعلو محياه. لا يفهم ما يجري بالضبط وما معنى أن سلسلة ابنته المفقودة موجودة في درج شقة مشبوهة لصديقه منصور!

تغزو الحيرة تعابير وجهه، والشكوك تنبض في قلبه. يقف مسرعًا ويذهب إلى غرفة نومه. يفتح جهاز اللابتوب. يضغط على الأزرار. ليفتح فيديو مصورًا تم تفريغه من كاميرا مراقبة كانت موضوعة عند بوابة الحديقة التي اختفت فيها ابنته. الفيديو بالأبيض والأسود.

هو لم يرَ ابنته في الفيديو تخرج من الحديقة يومها، لكن يحاول مجددًا مشاهدة الفيديو اليوم لعله يجد شيئًا لم يره من قبل.

يشغّل الفيديو بسرعة متوسطة، عينه تتابع الوجوه بسرعة، تتابع الداخل والخارج من الحديقة، فجأة يشاهد شخصًا ما قد رآه من قبل. يوقف الفيديو ويعيد اللقطة. يشغل الفيديو من جديد. يلاحظ عامل نظافة قد خرج من الحديقة حاملًا كيس قمامة أسود حجمه كبير.

رأى رائد هذا الشخص في الفيديو مرارًا وتكرارًا، لكن اليوم.. يشعر بأنه شخص مألوف للغاية، يعيد اللقطة ويشغلها من جديد. يوقِف الفيديو مجددًا، حينها يرى وجه العامل، يكبِّر الصورة لكن ضعفت جودتها عند تكبيرها. يغلق الفيديو.

يشغل فيديو آخر تم تفريغه في اليوم نفسه من كاميرا مراقبة كانت موضوعة في موقف سيارات الحديقة. ينظر في الأشخاص الظاهرين في الفيديو بتمعن. عيونه تتابع كل وجه. يلاحظ عامل النظافة من جديد؛ يبطئ الفيديو قليلًا، ليلاحظ قيام عامل النظافة بوضع كيس القمامة في سيارته، لم يضعها في القمامة بل في سيارته!

تتسع حدقتا عينيه وهي تشاهد الفيديو. يركب عامل النظافة السيارة ويشغلها. وجهه لا يزال غير واضح من هذه الزاوية.

يشغل فيديو آخر تم تفريغه من كاميرا المراقبة الموضوعة عند كشك حساب موقف السيارات في اليوم نفسه، يراقب سيارات الأشخاص الذين غادروا الموقف في ذاك اليوم وتلك الساعة، ليرى سيارة عامل النظافة قد وقفت لدفع رسوم الوقوف في مواقف السيارات. يفتح العامل شباك سيارته ليطل برأسه ويعطي الفلوس لموظف التحصيل. يوقف الفيديو في تلك اللحظة. حينها يرى وجه العامل بشكل واضح. لقد رآه من قبل. إنه.. بركات!

يعيد اللقطة أكثر من مرة حتى يتأكد. نعم. إنه بركات. لم يتغير، سوى أنه يظهر بشارب في الفيديو. ما الذي يفعله بركات في زيّ عامل نظافة في الحديقة في ذاك اليوم. اليوم الذي اختفت فيه ابنته!

يغلق اللابتوب والصدمة تعلو وجهه. لا يعلم ما الذي يجري بالضبط، لكن هناك تساؤل واحد مستقر في باله: ماذا تفعل سلسلة ابنته المفقودة في درج منصور؟

خرج من غرفته واتجه نحو جدار غرفة المعيشة حيث عُلقت صور ابنته. يتمعن في صورتها تتلألأ عيناه بالدموع. يشعر بأن مريم تقف خلفه. لا يريد النظر إليها حتى لا يزيد شعوره بالحزن، حتى لا تشتعل نار غضبه أكثر فأكثر. تفرّ دمعة من عينه. يخاطب ابنته دون أن الالتفات إليها.

- أشعر بأنني سأراك قريبًا يا ابنتي الحبيبة.

(٧)

في اليوم التالي، يستعد الجميع للعيد وفرحته حيث امتلأت الجمعيات التعاونية بالناس لشراء البضائع، وآخرين لجأوا إلى المجمعات التجارية بينما يلجأ البقية للذهاب إلى المطار للسفر والابتعاد عن قيظ حر هذه البلدة والتنعم ببرد أوروبا.

تشير الساعة إلى الثانية عشرة ظهرًا، حيث يجلس بركات في سيارته خارج نادٍ رياضي للأطفال. يبدو أنه ينتظر شخصًا ما. ينظر بركات في ساعته ومن ثم يلقي بنظره نحو بوابة النادي، ليرى منى وإيمان خارجتين من النادي. يبتسم لهما. يخفض زجاج نافذة السيارة:

- عليكم تأخير يا بنات.

تسير منى وإيمان ضاحكتين نحو السيارة، تقول إيمان:

- منى هي السبب يا عمو.

تتعجب منى:

- يا كاذبة! أخبرتك مرارًا وتكرارً أننا تأخرنا على عمو بركات لكن أنتِ من قلت إنك تريدين الاستمرار في السباحة.

- أنتِ الكاذبة.

يحاول بركات أن ينهي خلافهما:

- كلاكما تقولان الحق. المهم اركبا السيارة. سنتأخر على الغداء. هيا بنا.

تركبان السيارة وتجلسان على المقاعد الخلفية، يقود بركات السيارة وقبل أن ينتقل إلى الشارع الرئيسي، يجد شخصًا ما واقفًا أمام سيارة معطلة، يشير له بأن يقف. يوقف بركات سيارته. يطل من نافذة السيارة ليرى أن الشخص هو رائد، يرتدي نظارة شمسية وكاب أسود، يضع ضمادة فوق أنفه، والكدمات لا تزال واضحة على وجهه ورقبته.

يصدم بركات من رؤيته لكن يخفي صدمته بابتسامة باردة. يبتسم له رائد ابتسامة عريضة لا تخلو من الزيف قائلًا:

- عفوًا يا أخي. هل يمكنك توصيلي؟

يعلو الاندهاش ملامح وجه رائد ويمثل أنه متفاجئ من رؤية بركات خلف المقود، ومن رؤية البنات في المقاعد الخلفية، ثم يقول:

- أووه، بركات! ما هذه الصدفة العجيبة! ومن معه، إيمان ومنى! يا الله.

تبتسم له الفتاتان، وتسأله منى:

- كيف حالك يا عمو؟

تتغيّر ملامح رائد من الفرحة إلى الحزن لكن بشكل طريف:

- أنا لست بخير يا منى.. سيارتي تعطلت.

- ماذا حدث لوجهك؟

- لا تقلقي.. مجرد اصابة عمل.

تقول منى:

- تعال.. اركب معنا. بركات سيوصّلك معنا.

يتوتر بركات. ينظر نحو منى الجالسة بالخلف:

- فكرة رائعة يا منى، لكن سنتأخر على الأهل.

ينظر نحو رائد:

- كنت أتمنى خدمتك يا أستاذ رائد.. لكن..

حينها تتحدث ايمان:

- اركب معنا يا عمو.. أنت صديق عزيز لعمو منصور.

يلتفت بركات نحو إيمان والارتباك يعلو وجهه:

- ماذا؟!

تردف إيمان قائلة:

- عمو منصور سيغضب إذا لم نقم بتوصيلك.. أليس كذلك يا بركات؟

ينظر بركات بقلق نحو رائد الذي يبادله نظرات كلها مكر وخبث، ومن ثم يتحدث إلى إيمان بلطف:

- بالضبط. معكِ كل الحق يا ايمان.

ثم يعود إلى النظر بلؤم وخبث نحو بركات قائلًا:

- عمو منصور سيغضب جدًّا.. جدًّا.

يجيبه بركات بصوت خافت مليء بالخوف والقلق:

- لكن.. سنتأخر على الأهل.

حينها تردد إيمان ومنى نفس الجملة بصوت عالٍ:

- اركب معنا... اركب معنا.

يبتسم رائد ابتسامة كبيرة للغاية ويربت على كتف بركات. يقوم رائد بالالتفاف حول السيارة من الأمام ليصل إلى المقعد الجانبي للسائق. يحاول فتح الباب، لكن الباب مغلق. ينظر نظرة حادة نحو بركات الذي يضغط الزر ويفتح الباب له. يفتح رائد الباب ويجلس بجانب بركات. تزداد علامات الفرح على البنتين. يبدأ بركات بقيادة السيارة والقلق واضح على تعابير وجهه. يتصبب العرق من يديه وقد لطخ بعض منه مقود السيارة. ينظر بطرف عينه نحو رائد الذي يحدق فيه بترقب وصمت متسائلًا:

- ما الذي حدث لوجهك.. يبدو وكأنك كنت في مشاجرة عنيفة.

- لا أبدًا.. وقعت على السلالم.

ينظر بركات متعجبًا نحو رائد. يشعر أنه يكذب، لكن يستمر في مسايرته:

- وقعت على السلم! تمام. طيب.. ما الذي حدث لسيارتك؟

- لا أعلم بصراحة، الميكانيكي سيطلع عليها ويفيدني بسبب العطل. لو تكرمت بعد أن تقوم بتوصيل البنات.. خذني إلى أقرب ميكانيكي.

ينظر بركات بقلق نحوه:

- بعد أن أوصّل البنات؟!

- أكيد.. هل توّد أن نأخذ معنا البنتين إلى الميكانيكي؟ لا، طبعًا. من الأفضل أن توصلهما أولًا ثم توصلني إلى الميكانيكي.

يلتفت رائد نحو الفتاتين بالخلف:

- أليس كذلك يا بنات؟

تبتسمان وتومئان بالموافقة، ثم تسأل منى:

- إلى أين كنت ذاهب يا عمو؟

- إلى صديق قديم.. لدي معه حساب لم أخلصه منذ سنين طويلة. صديق أعتقد أنه لن يتوقع قدومي.

يرمقه بركات بصمت ثم يلتفت للطريق، فتسأل إيمان:

- عمو، لماذا ماما لا تحبك؟

توبخها منى:

- اسكتي يا هبلة.

- أنتِ هبلة.

يبتسم رائد، وينظر نحو ايمان من خلال مرآة السيارة الأمامية:

- عادي. عادي. سؤال وجيه بالفعل. وسأجيبك بكل صراحة. والدتك تعتقد بأنني أهملت في حماية ابنتي، وأنني كنت مقصرًا في حقها ولم أتكفل بحمايتها بالشكل المطلوب، وهذا الإهمال هو ما جعل والدتك لا تحب رؤيتي، لأنها إنسانة تهتم بحماية أبنائها وبناتها، لأنها تحبكما.

فتسأله إيمان:

- وأنت لم تحب ابنتك؟

يصمت رائد للحظات ومن ثم ينظر نحوها في المرآة:

- أحببتها أكثر من نفسي.

- طيب.. ماذا حدث لها؟

تتدخل منى:

- كفي عن الأسئلة.

تعتذر منى له:

- اعذرنا يا عمو.

يبتسم رائد قائلًا:

- ضاعت مني.

ثم يكمل وعينه على بركات:

- لكن.. أعدكم بأنني سأجدها.

تبتسمان له بينما تزداد معالم التوتر على وجه بركات. تصل السيارة إلى منزل غانم. تترجل الفتاتان من السيارة وتلوحان إليهما وتطلب منى من بركات عدم التأخر عليهما، فيرد عليها:

- لن أتأخر.

يلتفت رائد نحوه ويقول وعينه ممتلئة بالغضب:

- قل إن شاء الله!

يتصبب العرق على جبينه ثم يجيبه بابتسامة فاترة:

- إن.. شاء.. الله.

ويتحرك بالسيارة مبتعدًا عن المكان.

***

عند الحديقة التي اختفت فيها ابنة رائد منذ سنوات، ثمة لافتة كتب عليها «مغلقة للتصليحات» على بوابة الحديقة التي أصبحت الآن مهجورة من البشر، لتحتلها القطط الشاردة، وعلى بعد بضع خطوات من البوابة، تقف سيارة بركات وبجانبه رائد.

يقول رائد وعيناه تكتمان الدموع ويتسلل الحزن إلى ملامحه:

- لا أصدق.. لا أصدق ما قلته. كيف؟ مستحيل! بهذه السهولة؟! ما هذا؟! كيف وصلتم لهذه الدرجة من الانحطاط! ومن أجل ماذا؟! حتى تكسب أنت وولي نعمتك بضعة من النقود! على حسابي وحساب حياتي وأسرتي.. وبنتي.

يصمت رائد للحظات ثم يبدأ بالبكاء دون صوت. تنهمر الدموع بشدة لتنزل بسرعة البرق على وجنتيه وعلى ملابسه. يخفض رأسه. يريد أن يئن من البكاء.. يريد أن يصرخ لكن يأبى. يكتفي فقط بالبكاء دون صوت. يتوقف عن البكاء، يبلع ريقه. يكمل حديثه دون أن ينظر نحو بركات:

- كيف وصلتم لهذا المستوى من الدناءة! يعني.. ألم تفكروا في أي طريقة أخرى؟ في أي شخص آخر؟ لم أنا بالتحديد؟ لم أنا بالتحديد؟

ينظر إلى بركات. لا تزال الدموع تنهمر بغزارة من عينيه، يزداد غضبه متسائلًا:

- أجبني يا بركات.. أجبني أرجوك.

ينتبه لصوت غرغرة واختناق. إنه بركات غارق في دمائه. هناك سكين حاد مغروس في منتصف صدره والدماء تنزف بغزارة من فمه. يحاول التحدث لكن لا يخرج منه سوى صوت حروف متقاطعة ممزوجة بالدماء واللعاب اللذين يسيلان ببطء من فمه.

يحاول بركات رفع رأسه ليرى شخصًا واقفًا من بعيد. يبدو أنه عامل نظافة من الجنسية الآسيوية، يرتدي زيًّا شبيهًا بالزي الذي ارتداه بركات في مقطع الفيديو الذي تم تفريغه من كاميرا المراقبة يوم اختفاء مريم. يلتقط العامل القاذورات من الأرض ويضعها في صندوق مهملات كبير يجره على عجلات. يرفع بركات يده المرتعشة والملطخة بالدماء ليضغط على بوق السيارة بالمقود. يضغط عليه أكثر من مرة. صوت البوق يظهر بقوة من السيارة ليشد انتباه العامل. ينظر رائد إلى بركات بصمت، ثم إلى العامل الآسيوي. يلاحظ أن العامل انتبه للسيارة بسبب البوق. يقول لبركات:

- ماذا؟! هل تعتقد بأن هذا الرجل سينقذك؟! ها؟

يستمر بركات بالضغط على البوق بينما الدماء تسيل بغزارة من فمه. يتقدم العامل الآسيوي نحو السيارة يحاول النظر إلى داخلها من الأمام، حينها ينزل رائد نافذة السيارة من جهته ويخرج يده الممسكة ببضعة دولارات. يعطيها للعامل.

يسعد العامل بهذه الحفنة من الدولارات ويأخذها بكل سعادة من يد رائد دون أن ينظر إلى الشخص الملطخ بالدم الذي يحتضر بجانبه. يغادر وهو في غاية الفرحة. يرفع رائد زجاج نافذة السيارة ويمسك بيد بركات حتى يمنعه من الاستمرار بالضغط على البوق. يمسك رائد بالسكين المغروس في صدر بركات لينزعه بقوة. تتناثر الدماء كالنافورة من صدر بركات لتلطخ زجاج السيارة الأمامي. يطعن رائد صدره أكثر من مرة لتتناثر الدماء أكثر فأكثر داخل السيارة. يتلطخ وجه رائد الغاضب بالدم وهو مستمر في طعن بركات بالسكين، المرة تلو الأخرى.

يفارق بركات الحياة، ويسقط رأسه على المقود ليصير صوت البوق على نغمة واحدة مستمرة، حينها يرفع رائد رأس بركات ليتوقف البوق، ويضع رأسه بهدوء على زجاج النافذة التي بجانبه.

يرن هاتف بركات النقال، يمد رائد يده ليسحبه من جيبه. على شاشة الهاتف اسم «مدام جيهان». يشاهد شاشة الهاتف بصمت ولا يجيب. يرفع رأسه وينظر في مرآة السيارة الأمامية، حينها يرى ابنته مريم جالسة في المقعد الخلفي، في نفس المكان الذي كانت تجلس فيه منى وإيمان منذ قليل. ينظر بصمت نحو ابنته، وهي أيضًا تبادله النظرات بصمت وهي تلعب بالدب الوردي الصغير بين يديها.

(٨)

تشير الساعة إلى الثانية والنصف ظهرًا، ينزل منصور من العمارة التي بات الليلة في إحدى شققها. يبدو عليه التعب. لا يحرك كتفه بشكل مناسب حتى لا يزداد الألم جراء الجرح الذي أصابه أمس. يلتفت يمينًا ويسارًا، يضع سيجارة في فمه، ويشعلها بعود كبريت. يلقي التحية على حارس العمارة المسن. يبتسم له ابتسامة لا تخلو من التكبر.

يتجه منصور نحو سيارته الفارهة المركونة أمام العمارة. يركبها ليسير بها بعيدًا، حينها نكتشف أن رائد جالس في سيارته هو أيضًا يراقب منصور. يحرك رائد سيارته ليتبع سيارة منصور الذي يسير في الشارع الرئيسي السريع، وعلى بعد بضع سيارات يتبعه رائد بسيارته. لم يلاحظ منصور تتبعه له، فكان مشغولًا بسماع الراديو والإنصات إلى آخر التكهنات المتعلقة بالقاتل المتسلسل الذي ظهر في البلاد في آخر فترة، بينما لا صوت في سيارة رائد، لا يوجد سوى صمت وغضب دفين واضح في عينيه وهو يقود سيارته.

يقف منصور بسيارته أمام مطعم «كزدورة بترون»، يترجل من سيارته ويدخل المطعم. وعلى بعد بضعة أمتار.. سيارة رائد في الزاوية وهو في داخلها تمتلئ عيناه بالغضب، يرفع يده اليمنى الممسكة بالهاتف النقال، يقرأ رسالة من منصور مكتوب فيها:

قابلني في مطعم «كزدورة بترون».

***

داخل المطعم يقف موظف الكاشير ممسكًا بالهاتف الأرضي يسجل طلبًا ما، بينما يأتي النادل ممسكًا بطبق سلطات وتبولة ويذهب إلى طاولة يجلس أمامها منصور يأكل طبق شوربة عدس. المطعم شبه خالٍ من الزبائن، فلا توجد سوى ثلاث طاولات، يجلس منصور على واحدة منها بينما الطاولتان الأخريان لا يجلس عليهما أحد. منصور منهمك في الأكل، وهو ينظر نحو التلفاز الموضوع في زاوية المطعم، يطالع نشرة الأخبار والتي تتناول آخر المستجدات عن القاتل المتسلسل الذي انتشرت جرائمه في البلاد.

تناشد المذيعة مشاهدي النشرة الاخبارية:

«وبالرغم من الجهود المضنية لرجال الشرطة في البحث عن من يقف وراء كل تلك الجرائم، إلا أنه لم يتم التوّصل حتى الآن إلى هوية القاتل. وعلى صعيد آخر، مذبحة مرعبة تمت في ضاحية رابح المنياوي يوم أمس.. المزيد من التفاصيل بعد هذا الفاصل».

يبدأ فاصل إعلاني، يدخل رائد المطعم. يلمحه منصور لتظهر عليه علامات السعادة:

- صديقي! تعال، اجلس. تفضل.

يمسح رائد المكان بعينيه ليطمئن بأنه لا يوجد شيء يدعو للريبة. يتجه نحو الطاولة التي يجلس عليها منصور، ليرحب به منصور أشد ترحيب:

- أهلًا، أهلًا، حبيبي.. اجلس، اجلس.

- كيف حالك يا وكيف كتفك؟

- الألم أخف بكثير من أمس. سلمت يداك على المساعدة. لذا قلت لا بد من آكل اللحم اليوم حتى أقوي لحمي. تفضل.

يأتي النادل حاملًا طبقًا كبيرًا من المشويات المشكلة، ليضعه على الطاولة. تقفز السعادة من مقلتي منصور:

- حضرت وحضر الخير معك! تفضل، رم عظمك.

- لا، لست جائعًا.

- ما الذي تقوله يا رجل! بعد ما حدث بالأمس فأنت بحاجة ماسة لهذا اللحم.

يظهر الارتباك على وجه رائد. يخاطب منصور بصوت خافت:

- اخفض صوتك، ستفضحنا.

يبتسم منصور ويبدأ بأكل قطع الكباب:

- لا تقلق، هذا المطعم لا يتميّز باللحم اللذيذ فحسب، بل هو منعزل عن البشر. قلة من يعلمون طريقه. ثم خيري على موظفي المطعم لا يحصى، لن يجرؤوا على خيانتي أبدًا.

- اشتريت ذمتهم يعني؟

- شيء من هذا القبيل.

يأخذ رائد قطعة دجاج ليأكلها، وتظهر على وجهه علامات الامتعاض والاشمئزاز:

- الآن عرفت لم هذا المطعم خالٍ من الزبائن!

- المهم.. اسمعني. هل توّد معرفة المهمة الجديدة أم لا؟

- بالطبع. هات ما عندك.

يخرج منصور ظرفًا بنيًّا من جيبه ويضعه على الطاولة:

- ستجد كل المعلومات المطلوبة في هذا الظرف. السيدة في انتظارك اليوم.

يأخذ رائد الظرف ويفتحه ليجد بضع أوراق، يتمعن في إحداها، ثم يردف منصور قائلًا:

- ستعجبك. لا تقلق.

- عمها؟!

- بالضبط. وهي تود إتمام المهمة يوم غد. أول أيام العيد.

يضع منصور الأوراق في الظرف ويضعه على الطاولة، فيسأله رائد:

- لماذا؟

يستمر منصور في تناول الكباب والدجاج، ويجيب وهو يمضغ طعام:

- لأنه اعتاد التحرش بها في العيد. ستخبرك بالتفاصيل عند لقائها اليوم.

يرفع منصور رأسه باحثًا عن النادل:

- يا مسعد، أين الثوم؟

يلتقط رائد شوكة ويضعها في قطعة كباب ليأكلها، فيبادره منصور:

- هل تريد طبقًا آخر؟ وبعض الأرز؟

يبتسم رائد، ويهز رأسه بالنفي ليشرب:

- عليّ الذهاب الآن.

- (متعجبًا) إلى أين؟

- للقاء السيدة.

تظهر علامات السعادة على وجه منصور:

- الله عليك.. خير البر عاجله. أتمنى من كل قلبي أن تكون مهمة أبسط من مهمة أمس.

يهم رائد بالوقوف مبتسمًا:

- ليس لدي شك في ذلك.

يسمع رائد صوت المذيعة في التلفزيون، ليلتفت نحوه. حينها يرى المذيعة تخاطب الجمهور:

«وقد أعلن أحد الأشخاص على مواقع التواصل الاجتماعي عن تقديم مكافأة مليون دولار لأي شخص يدلنا على معلومات عن القاتل».

يلتفت نحو منصور:

- منصور. مليون دولار! ليس مبلغًا هيّنًا. هل تبيعني مقابل مليون دولار؟

يبتسم منصور، ويقف في مواجهته:

- أستغفر الله. أبيع أخي وصديقي الغالي مقابل مليون دولار! ما الذي تقوله؟!

يصمت منصور للحظات ثم يقول مبتسمًا:

- أبيعه مقابل ١٠ ملايين.

يضحك منصور ضحكة مدوية، بينما رائد لا يزال ينظر إليه بصمت. يتدارك منصور الموقف:

- اضحك يا رجل. أنا أمزح معك. أنت أغلى عندي من كنوز الدنيا يا رفيق الدرب. ألا تعلم هذا يا رائد؟! أنا أقطع رقبتي ولا أقبل أن أبيعك.

- أعلم هذا، وأعلم أنك كالأفعى، تعض حتى وإن فُصل رأسها عن جسدها.

- اقطع رأسي.. المهم لا تقطع شيئًا آخر.

يضحك منصور بصوت عالٍ، فيبتسم رائد ابتسامة بسيطة لكن تدريجيًّا تتحوّل الابتسامة إلى ضحكة، حينها يصافحان بعضهما وهما يضحكان بصوت عالٍ.

***

في عام ١٩٩٣ في أحد الأحياء الفقيرة، حوراء –الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأسود الناعم والتي بلغت من العمر ١٤ عامًا– خارجة من السينما برفقة صديقاتها. ورغم صغر سنهن، إلا أن ملابسهن تشع بالجمال والأناقة. حولهن الأطفال وهن يركضن خلف بعضهم حاملين مسدسات بالماء. كانت هذه أجواء العيد. فالفرحة تشع من كل ركن ومن زقاق.

تسرع حوراء خطواتها حتى لا يرشها أحدهم بالماء، لكن يقف أمامها طفل بريء يحمل مسدس ماء. يهددها بتبليل ثيابها فترمقه بنظرات كلها براءة وخجل. ليعجز الطفل عن إتمام مهمته أمام عذوبة هذه الحوراء، ليصوّب مسدسه نحو زميلتها ليرشها هي بالماء. تصرخ صديقتها وقد ابتلت ثيابها بالكامل. يهرب الطفل. أما حوراء فتضحك بصوت عالٍ لتضحك معها زميلتها ورفيقاتها.

تدخل حوراء بخطوات هادئة نحو الزقاق المؤدي إلى المبنى الذي يضم شقتها البسيطة، حينها تودّع رفيقاتها اللواتي يغادرن في اتجاه آخر. تقترب من العمارة الصغيرة ذات الطوابق الثلاثة والتي تضم شقتها. تقف فجأة عند عتبة العمارة، تلتفت خلفها. لترى سيارة هوندا حمراء صغيرة الحجم. يتسلل الخوف إلى عينيها. تنظر إلى السيارة بقلق. من الواضح أن لديها ذكريات سيئة مع هذه السيارة وصاحبها.

تصعد السلالم المؤدية إلى شقتها. خطواتها مثقلة بالحذر والقلق. تسمع صوت ضحكات عالية تتسلل من شقتها. تطرق الباب بهدوء. تسمع بالداخل جملة «هذه أكيد حوراء».

بعد لحظات من الصبر المخلوط بالتوتر، يُفتح الباب. لترى حينها والدها، أبو داغر، رجل مسن، أصلع، بشوش. يبتسم ابتسامة عريضة من قبل أن يفتح الباب.

تبتسم له حوراء. يحتضنها والدها بكل حب، وهي تبادله الأحضان بذات الحب وأكثر. يشير والدها إلى غرفة المعيشة، وكأنه يدعوها إلى لقاء شخص ما داخل الغرفة. تسير بخطى بطيئة نحو غرفة المعيشة. تظهر حبات العرق جلية على جبينها الأبيض. يدها ترتجف من القلق. خطواتها ثقيلة للغاية. فهي لا تود الدخول إلى الغرفة لكن أباها كان يدفعها بشكل ناعم إلى الدخول.

تدخل إلى غرفة المعيشة لترى عمها يقف أمامها مبتسمًا. الخبث يطل من عينيه. الخوف يزداد في عينيها. والدتها جالسة في زاوية الغرفة، تنظر نحوها بكل فرح، وفي حضنها ابنها ياسين الذي يبلغ من العمر سنتين. كانت نظراتها لوالدتها لا تخلو من الاستنجاد. إلا أن الوالدة للأسف لم تفهم معنى النظرات. يقترب العم من حوراء. يفتح ذراعيه مستعدًّا لاحتضانها. لغة جسدها تصرخ: لا! لكن العم يقترب أكثر فأكثر. يحتضن العم حوراء التي ينكمش جسدها من الاشمئزاز. لم تحرك ذراعيها أبدًا وهو يحضنها. يبدو وكأنه احتضن لوحًا من الخشب. يشعر بعدم ارتياحها لكنه يستمر في احتضانها، مستلذًّا بشعورها هذا، وتستمر هي بإظهار قرفها.

بعد لحظات مرت كالسنوات عليها، يتوقف العم عن احتضانها ويرجع إلى الخلف. يضع يده اليمنى على كتفها وهو يخاطبها، يسألها عن أحوالها، لكنها لا تسمع سؤاله ولا تأبه لكلامه. تبتسم له ابتسامة صفراء ظاهرها احترام، لكنها تخفي خلفها الكثير من الاحتقار. تحاول الرجوع إلى الخلف للتملص من قبضته على كتفها، لكنه أحكم قبضته عليها، متشبثًا بها، لا يريدها أبدًا أن تغادر. تقف الأم –وفي حضنها ابنها ياسين- وتخبرهم بأنه حان وقت تناول الغداء، وأن ابنها داغر على وصول.

تنادي الأم حوراء وتخبرها بأن تأخذ ياسين وتتابعه أثناء قيامها هي بتحضير الطعام. تأخذ حوراء أخاها وتنظر في عينيه بكل حب، وكأنها تريد أن تشعر بالأمان من خلال النظر في مقلتيه. تذهب الأم إلى المطبخ. يخبر الأب أخاه بأنه سيذهب إلى الحمام. ترتعب حوراء. ستصبح الآن بمفردها مع عمها. حتى وإن كان أخوها الصغير في حضنها، لكنه لم يتجاوز عمره العامين. لن يكون بمقدوره الدفاع عن أخته وحمايتها من هذا الحيوان.

يحدق العم فيها بشكل مريب، يقترب منها، يبتسم لها ابتسامة تفوح منها رائحة الخبث لتظهر معها أسنانه الصفراء التي تعفنت من أعقاب السجائر.

يسألها عن أحوال المدرسة وما أخبارها، تنظر إليه حوراء والخوف يملأ عينيها. تحاول الابتعاد عنه لكنه يقترب منها أكثر فأكثر. يمد يده ليضعها على قدمها. يدب الرعب في قلبها. لا تعرف كيف تخرج من هذا المأزق. ماذا سيحدث إن تمادى كما فعل من قبل؟! تقرص أخاها في فخذه قرصة قوية، يتألم ياسين ويصرخ بصوت عالٍ ليبدأ بالبكاء.

يرتعب العم ويرجع إلى الخلف، تقف حوراء ممسكة بأخيها الذي يبكي بحرقة متألمًا من القرصة. تخرج من الغرفة تاركة العم بمفرده في الغرفة غارقًا في خيبته. تذهب وهي تدمع نحو المطبخ، تلتفت الأم نحوها وتنظر بتعجب نحو ياسين، متعجبة لم يبكي هكذا؟ تضع حوراء أخاها بين أحضان أمها وتغادر مسرعة وهي تحاول إخفاء دموعها. تناديها أمها وتسأل عن سبب بكائه، لكنها تتجاهل سؤالها وتذهب مسرعة نحو غرفتها.

تدخل غرفتها وتغلق الباب خلفها. تنهمر الدموع من عينيها. تجلس على السرير وهي تبكي بحرقة. الخوف والقلق تمّلكا منها. لا تعلم كيف تخبر أباها وأمها أن عمها تحرش بها ومستمر في التحرش. وهل بالفعل لا يلاحظان هذا؟ هل هما بالفعل بهذه السذاجة؟!

تمسح دموعها أمام المرآة، عيناها تشعان بالغضب. لا تفكر سوى في أن تؤذي نفسها، لعلها تتخلص حينها من مشاعر الخوف والقهر والقرف.

بعد مرور ١٠ أعوام...

تقف أيضًا حوراء أمام المرآة، وقد أصبحت الآن في الرابعة والعشرين من عمرها. ملامحها ناضجة، بريئة لكن أرهقها التعب. لا تزال عينها جميلة لكنها الآن أكثر حدة. شعرها أسود طويل لكن تسلل إليه الشيب الأبيض رغم صغر سنها. تجلس مترقبة. تنتظر خبرًا ما. بين يديها منديل ورقي قطعت أجزاءه بيديها من التوتر. تقف في غرفة المعيشة ذات الأضواء خافتة. تشير الساعة إلى الثانية فجرًا. تنظر في ساعتها المرة تلو الأخرى. وبعد لحظات من الترقب، يرن جرس الباب.

تفزع وتصوّب عينيها نحو باب المنزل. يرن الجرس مرة أخرى. يزداد القلق على وجهها، تبلع ريقها، تمسك بمزهرية كانت موضوعة على الطاولة، تقترب بخطى بطيئة من الباب حاملةً المزهرية.

تقترب أكثر فأكثر من الباب وهي تحمل المزهرية كسلاح. تقول بصوت عالٍ: من؟

لكن لا أحد يجيبها. تقترب أكثر من الباب وتضع عينها أمام ثقب العين السحرية. لا ترى أحدًا خلف الباب.

تفتح الباب ببطء فلا تجد أحدًا سوى ظرف موضوع أمام عتبة الباب. تطل برأسها إلى الخارج وتنظر يمينًا ويسارًا ونحو سلالم الطوابق السفلية، فلا تجد أحدًا.

تأخذ الظرف وتغلق الباب. حينها كانت في الطابق العلوي آسيا مختبئة تطل برأسها نحو باب شقة حوراء لتتأكد من أنها أخذت الظرف.

تدخل حوراء إلى شقتها وتفتح الظرف ببطء، لتخرج منه صورة عمها وهو مقتول. غارق في دمائه. توجد سكينة مغروسة في جبهته، يبدو أنه كان جالسًا على كرسي عريض، وبجانب رأسه كانت صورتها، وهي في الرابعة عشرة من عمرها، موضوعة بجانب رأسه المضرج بالدماء.

تتأمل الصورة بهدوء، لتبدأ بعدها بالبكاء بحرقة. تجلس على الأرض باكيةً وهي تنظر نحو الصور. إنها دموع الراحة، دموع الخلاص من عبء مرعب عاش على كاهلها طوال هذه السنوات. تستمر في البكاء بحرقة ويعلو صوتها أكثر فأكثر. الفرحة واضحة على وجهها. لكنها في الوقت نفسه، دموع ألم لطالما أخفته عن أهلها، أو ربما هي دموع على مصيبة لم تستطع أن تحلها سوى بمصيبة أخرى، وهي الإذن بقتل عمها.

في كلتا الحالتين، حوراء لا تزال تبكي. تبكي وتئن بحرقة.

في ذلك الوقت كانت آسيا تقف خلف باب شقة حوراء تسمع بكاءها، وعينها تتلألأ بالدموع. تخرج هاتفها النقال من جيبها، وتهم بالمغادرة. وهي تسير على السلالم إلى الأسفل، تتصل برائد الذي كان جالسًا في سيارته المركونة بجانب الرصيف في أحد الشوارع، فيرد عليها:

- هل تمت المهمة؟

- نعم، لقد فتحت الظرف.. سمعتها وهي تبكي بحرقة.

- تمام. أشكرك على مساعدتك.

- ماذا عن المال؟

- لا احتاجه، ولن يحتاجه منصور أيضًا.

- ماذا ستفعل الآن؟

- سأكمل المهمة!

تقف آسيا على السلالم، وتصمت للحظات. تشعر بأنها لن ترى رائد بعد اليوم، تخنقها العبرة لكن تتمالك نفسها وتعود لمخاطبته عبر الهاتف:

- شكرًا، رائد. كل الشكر على ما فعلته لي.. ولغيري من ضحايا التحرش. أعلم أن ما تفعله ليس بالهيّن. لكنني متأكدة أنه فعل أراح العديد من الأرواح.

يبتسم رائد مجيبًا:

- وآن الأوان.. لروحي أن ترتاح.

يغلق السماعة، ويلتفت إلى يمينه. ليرى ابنته مريم جالسة في المقعد بجانبه، تنظر نحوه بعيون مبتسمة. تبدو عليها السكينة هذه المرة. يبادلها رائد النظرات.

- سامحيني.

- بابا، هيا بنا، لقد تأخرنا.

يبتسم رائد. تختفي مريم. يتسلل الحزن نحو معالم وجهه، ليترجل من سيارته ويغلقها.

يسير في الضاحية الهادئة، ينظر بحدة نحو منزل فخم الشكل. يقترب من بوابته، الباب مغلق، يلتفت يمينًا ويسارًا. يفكر كيف يدخل إلى المنزل. يسمع صوت شخص خلف البوابة المغلقة:

- من هناك؟

- أنا رائد.

يرجع رائد إلى الخلف. تُفتح البوابة. حينها يرى محمود -الذي رآه رائد مسبقًا وهو يتم تعنيفه بشدة على أيدي نايف أمام منصور- واقفًا خلف البوابة. يضع ضمادات طبية على وجهه ويديه. ينظر رائد نحوه بصمت. تأتي أصوات مجموعة شباب مراهقين يسيرون في الشارع ذاهبين إلى المسجد لأداء صلاة العيد، يراقبهم محمود وهم يغادرون بعيدًا نحو المكان، ثم يسأل رائد:

- ماذا تريد؟

- أريد رؤية منصور.

- ألا تعتقد أن الوقت متأخر للغاية لزيارته؟

- سنذهب سويةً إلى صلاة العيد في المسجد.

يسود الصمت للحظات بينهما، ليفتح محمود البوابة بشكل أكبر مرحبًا بدخول رائد. يتقدم ليدخل إلى حديقة المنزل، فيغلق محمود الباب. يلتفت رائد نحوه ويخرج رزمة من المال من جيبه ويقدمها له فيسأله متعجبًا:

- ما هذا؟!

- ثمن رحيلك من هنا. خذ هذا المبلغ وأفلت بجلدك. اهرب بعيدًا.

- (متعجبًا) ما الذي تقوله؟!

- اسمع الكلام. خذ المبلغ واهرب. هل تود أن تظل خادمه للأبد؟

يصمت محمود ولا يعرف كيف يجيب عن سؤال رائد، فيأخذ المبلغ ويهم بالمغادرة، ويغلق الباب خلفه.

يلتفت رائد نحو منزل منصور، في نفس اللحظة تلمع السماء المظلمة بألعاب نارية تتفجر فيها، لتنير المكان برمته لبضع لحظات. يسير رائد في حديقة المنزل متجهًا إلى منزل منصور وسط أنوار الألعاب النارية في السماء.

***

يفتح رائد الباب، ليدخل بهدوء نحو غرفة الاستقبال الواسعة. يرى الأضواء خافتة في معظم أرجاء المنزل. يبدو المكان فخمًا وواسعًا، لكن خفوت الإنارة في أركانه أخفى معالمه بالكامل. يخرج رائد من جيبه مسدسًا ويضع كاتم الصوت على فوهته، فجأة يتوقف عن ذلك، يزيل كاتم الصوت ويرميه على أريكة موضوعة بجانبه في منتصف المنزل. يحمل معه المسدس من دون كاتم للصوت. يتجه إلى غرفة المعيشة، ليرى صورة كبيرة معلقة على الجدار، إنها صورة لوالد منصور، العم فياض. يتأمل الصورة، حينها يسمع صوتًا قادمًا من إحدى الغرف. يلتفت إلى مصدر الصوت، ليرى من بعيد ضوءًا يطل من غرفة في الزاوية.

يقترب بهدوء من مصدر الضوء، حينها يلاحظ ظلًّا يتحرك من الضوء الصادر من فتحة باب الغرفة. يقترب أكثر فأكثر. يمد يده ليدفع الباب، حينها يرى منصور في المطبخ، وهو يضع السماعات في أذنيه، يستمع إلى الموسيقى، منهمكًا في الطبخ. ينظر رائد نحوه متعجبًا، يستمر منصور في التمايل على أنغام الموسيقى التي يستمع إليها عبر السماعات في أذنيه.

يلاحظ منصور وجود رائد أمام الباب. يتفاجأ ويزيل السماعات من أذنيه:

- رائد، عزيزي! ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ينظر منصور نحو الساعة المعلقة على الجدار:

- هل نحن على موعد ما ونسيته؟

يصمت رائد ثم يرد مبتسمًا:

- لا، فقط رغبت في إقامة صلاة العيد معك يا صديقي.

يضحك منصور بصوت عالٍ، ثم يستمر في إعداد الطعام، قائلًا:

- يا لجمالك يا رائد. عزيزي، آخر مرة صليت كانت منذ سنين طويلة.

- أكانت في صلاة الجنازة؟

يتوقف منصور عن إعداد الطعام، وينظر بصمت نحو رائد. يتوتر الجو بينهما. يكمل رائد كلامه:

- صلاة الجنازة على صديقك الذي أمرتني بقتله. أليس كذلك؟

- صحيح... وافي أبو سماوي.. أول متحرش نقتله. أتذكر هذا اليوم.

- ذكرّني.. ما الذي فعله بالضبط؟

يخفض منصور رأسه ويكمل إعداد الطعام وهو يحدثه:

- لطالما سمعنا عن تحرشاته بابنة... عن تحرشاته بابنة أحد الأصدقاء.

- بل لأنه تحرش بحبيبتك وقتها، الحسناء ذات الشعر الأشقر. ذكرّني باسمها.

يرفع منصور ناظريه نحو رائد. لم يكن مرتاحًا لهذا الحوار، لكن يكمل إعداد الطعام ويجيبه بهدوء:

- اسمها فجر.

- نعم، فجر. قتلناه من أجل فجر، حينها انتقم أخوه منك.. اقتحم بيت أخيك وهاجمه هو وأسرته.. وفي هذا الهجوم تم تشويه وجه ابنة أخيك ايمان. ليس كما تدعي بأن الكلبة لولا هي السبب، بل السبب كان خلفه كلب آخر!

يتوقف منصور عن إعداد الطعام ويرفع رأسه وينظر نحو رائد بوجه بشوش لا يخلو من الزيف:

- هل تحب البلاليط؟

يتعجب رائد. يكمل منصور حديثه:

- لطالما أحببت أكل البلاليط فجر كل أول يوم عيد، لطالما أكلتها وحدي، لكن لا ضرر من أن يشاركني صديقي هذه المرة، عذرًا، ليس صديقي فحسب بل أخي، أخي الذي لم تلده أمي، اجلس وسأقدم لك البلاليط خلال ثوانٍ. تفضل، اجلس.

يحدق رائد في منصور بعيون خالية من المشاعر، يشعر بأن منصور كان مستعدًّا لمواجهته. يضع رائد المسدس في جيبه ويقترب ليأخذ كرسيًّا ويجلس عليه أمام طاولة الأكل، ثم يقول:

- أين الخدم؟

- منهم من سافر مع أختي وأسرتها إلى ميكانوس ومنهم من ذهب مع غانم إلى الشاليه. شاليه العائلة الخاص. أعتقد أنني ذهبت بك إلى هناك.

- لا.

- ممم.. المهم أنني وحدي في المنزل.. Home Alone.

يبتسم منصور ويأخذ المقلاة التي تحتوي على البيض، ويضع بعضًا منه على طبق، والبعض الآخر على طبق ثانٍ. يضع الطبق الأول أمام رائد الذي يسأله:

- ألن تسألني عما حدث؟

يضع منصور بعض الشعيرية على طبق البيض أمامه، والباقي على طبق رائد، قائلًا:

- تقصد صاحبة المهمة الجديدة؟ لا، أنا لا أسأل ولا أهتم، إلا إذا شعرت بالريبة تجاه المهمة. وأعتقد أنها مهمة سهلة للغاية مقارنة بالمهمة السابقة.

- (مبتسمًا) لا شيء يقارن بالمهمة السابقة.

- والحمد لله، خرجنا منها سالمين.

يجلس منصور أمام رائد، يضع ثلاث ملاعق سكر فوق البلاليط، ثم يضع علبة السكر بينه وبين رائد، ويكمل:

- أعلم أنك مصاب بداء السكري، لذا ليس من الضروري أن تضع السكر على البلاليط، لكن لا بأس إذا وضعت ملعقة واحدة. المهم.. الخيار خيارك، ليس لي شأن.

- لهذه الدرجة تهتم بصحتي؟

- ما هذا السؤال يا رائد؟! أنت أخي.. أخي بحق.. أشعر وكأنني أعرفك طوال عمري.

- ذكرّني.. كنا نعرف بعضنا أيام الكلية العسكرية.. أليس كذلك؟

يبدأ منصور بالتهام البلاليط، يرد على رائد والطعام في فمه:

- طبعًا. لم نكن في نفس الدفعة لكن جميعنا كنا نعرف.. رائد الصائد.

يبتسم رائد، ويأكل بعضًا من البلاليط:

- رائد الصائد.. لم أسمع هذه العبارة منذ سنين.

يضع رائد معلقة سكر على البلاليط، تليها معلقة ثانية، ثم يكمل أكله. يرمقه منصور بهدوء ثم يكمل أكله هو الآخر قائلًا:

- لمهارتك في صيد كل شيء تضعه نصب عينيك، كنت قناصًا ماهرًا، وبارعًا في المعارك الجسدية، ناهيك عن مهارتك في استخدام الأسلحة والسكاكين، كنا نراك قدوة لنا في القوة والبأس والشراسة.

- ماذا أيضًا؟ امدحني أكثر.

يبتسم منصور ويستطرد:

- اختفيت لفترات عدة بعد التخرج. البعض قال إنك شاركت في أكثر من حرب وغارة بالاشتراك مع الجيش الأمريكي والبعض قال إنك كنت في معسكر مغلق مع الأفغان.

- (متعجبًا) أفغان!؟

- إنها أقاويل ألّفها كثيرون نتيجة اختفائك عن الأنظار. اعذرهم. الناس يلجأون إلى الأوهام عادةً إذا افتقروا إلى المعلومات الصحيحة.

يتأمل رائد في منصور لوهلة من الزمن، يستمر في الأكل ثم يرد على حديثه:

- وأنت؟ هل كنت تعتقد أنني ذهبت إلى أفغانستان؟

- لا. لكنني كنت متيقنًا أنك في مكان بعيد عن الناس. لذا صدمت عندما رأيتك في قسم الشرطة يومها، أتذكر هذا اليوم يا رائد؟

يتوقف رائد عن الأكل ليمضغ طعامه بهدوء. يتابع منصور بنظرات حادة وهو يحاول تذكر اليوم، ويومئ بالإيجاب فيقول منصور:

- كانت أول جريمة قتل ترتكبها بعد اختفاء ابنتك. أليس كذلك؟

يتوقف رائد عن الأكل، يرجع إلى الخلف، يمسح يديه بمنديل:

- صحيح.

***

يتذكر رائد هذا اليوم حيث كان في وضح النهار وقبل أقل من ثلاث سنوات في زقاق بسيط في أحد الأحياء الشعبية، تصرخ سيدة مسنة بعلو صوتها «متحرش! اقبضوا عليه». يلتفت الجميع نحوها وعيونهم قد اتسعت من هول الصدمة. تحمل السيدة ابنتها الصغيرة وهي تبكي. تصرخ بصوت عالٍ: «لمس ابنتي.. الحقير على دراجته هناك.. لا تدعوه يهرب». تشير نحو نهاية الشارع.

يلتفت الجميع نحو الجهة التي تشير إليها السيدة، ليروا شابًا ملثمًا يركب دراجة نارية هاربًا من المكان، وأبو فهد واقف أمام بقالته يشير إلى الشاب:

- إنه هناك، ليلحق به أحدهم يا ناس.

يخرج رائد من بقالة أبو فهد، يشاهد الشاب وهو يهرب على دراجته. يلتفت نحو بقية الأشخاص في المكان، ليرى الأم وهي تصرخ: «الملعون تحرش بابنتي وهرب.. لا تدعوه يهرب أرجوكم»، يلتفت رائد إليها بحزن، ويتجه نحو المكان الذي هرب منه الشاب وقد تحول الحزن في عينيه في لحظة إلى غضب متقد.

حينها كان المتحرش يسير بدراجته بسرعة وسط العمارات والأزقة إلى أن يصل إلى ساحة ترابية خالية من البشر ليس بها سوى بضع سيارات بعضها محطم وبعضها مهترئ.

يزيل اللثام عن وجهه، لتتضح ملامح وجهه المتسخة بالتراب المخلوط بالعرق. الخوف والتوتر تمّكنا منه. يلتقط أنفاسه بصعوبة. ينظر حوله فلا يجد أحدًا يطارده. يتنفس الصعداء مرتاحًا بهروبه من قبضة الناس. يبتسم ابتسامة نصر لكن سرعان ما تختفي الابتسامة عند رؤيته لسيارة مرسيدس صفراء كلاسيكية الشكل -يبدو أنها صُنعت في فترة الثمانينيات- قادمة من بعيد. ينظر إليها المتحرش بتعجب. تسير السيارة باتجاهه بسرعة جنونية. يفزع المتحرش ويسارع بتشغيل دراجته من جديد ليهرب من المكان وخلفه تسير السيارة بسرعة جنونية.

يقود المتحرش دراجته بسرعة وخلفه السيارة تطارده، ينظر نحوها تارةً ونحو الطريق تارةً أخرى. يحاول التملص من السيارة لكن هيهات، تلاحقه السيارة أينما ذهب. يقود دراجته إلى أزقة ضيقة، حينها تلف السيارة وتتجه بعيدًا إلى طريق آخر. ينظر خلفه وهو يسير بدراجته في الزقاق، فلا يجد أحدًا خلفه. يبتسم، يظن أنه تخلص من مطاردة السيارة له.

ينظر أمامه، لتظهر فجأة السيارة وتصطدم به. يسقط على الأرض بقوة، لتتحطم خوذته من الأمام، يهم بالوقوف والركض. تقف السيارة في منتصف الشارع، ويترجل منها رائد ويركض خلفه بسرعة حاملًا سكينًا حادًّا.

يركض المتحرش وسط الناس، ليعبر الشارع، يطارده رائد. يلهث، يركض بكل أوتي من سرعة لكن يتمّكن رائد من الإمساك به أثناء عبوره الشارع.

يسقط كل منهما في دوار يفصل بين شارعين رئيسين. يرفع رائد سكينه إلى الأعلى. يصرخ المتحرش. يتوسل لرائد أن يصفح عنه. ينظر نحوه رائد بكل غضب، ولا يأبه لتوسلاته.

يهوي بسكينه ليطعنه، يطعنه في صدره، يطعنه في بطنه، يطعنه في وجهه، يطعنه في رقبته، يطعنه في منتصف جبهته، يطعنه مرة تلو الأخرى تلو الأخرى في كل مكان في جسده. تتناثر الدماء بشدة على وجه رائد، وهو يصرخ بصوت عالٍ أثناء طعنه للمتحرش في منتصف الشارع في وضح النهار، على مرأى المارة من المشاة وقائدي السيارات. جميعهم يتابعون المشهد بعيون لم تخلُ من الصدمة والاندهاش.

في قسم الشرطة، جلس في الزنزانة بمفرده. لطخت الدماء وجهه وملابسه. بقع التراب امتزجت ببقع الدم على قدميه. ينظر نحو الأرضية بعيون ميتة، لا إحساس فيها. تشبعت تعابير وجهه بالبؤس. يبدو أنه مستعد لسنوات طويلة وبطيئة في السجن.

يُفتح باب الزنزانة. العسكري ينادي رائد، فيرفع ناظريه. يسير رائد في الممر، وبجانبه العسكري يمسك كتفه بقبضة عنيفة. يدخله مكتبًا شبه مظلم، لا يوجد فيه أحد إلا كرسي خشبي موضوع في منتصف المكتب. يجلس عليه رائد متعجبًا مما يحدث. يذهب العسكري تاركه بمفرده. يغلق الباب خلفه. يلتفت يمينًا ويسارًا، يرفع ناظريه نحو السقف باحثًا عن كاميرا مراقبة لكن لا يوجد. فجأة يفتح الباب، ليدخل منه منصور بعيون مبتسمة، بينما ينظر رائد نحوه بتعجب.

***

بعد تذكرهما لأول لقاء بينهما كان منصور قد انتهى من طعامه، ورجع إلى الخلف ليقول وعلى وجهه ابتسامة خبيثة:

- من يومها أصبحنا أصدقاء، بل وشركاء.

يبتسم رائد:

- شركاء في القتل.

- أكيد، لكن نحن لا نقتل الأبرياء، نحن نقتل من يستحقون القتل، الحرق، التمثيل بجثثهم، ما نفعله يا رائد يعتبر خدمة لمجتمعنا.

- خدمة؟!

- طبعًا. خدمة جليلة نستحق عليها التكريم من الدولة، نحن ننظف بلادنا من أقذر نوع من الكائنات الحية، أقول كائنات حية لأنهم فعلًا ليسوا بشرًا، بل طفيليات، المتحرشون بالأطفال هم أحقر وأبشع الكائنات الحية على الإطلاق، ووجودهم هو خطر على بناتنا وأبنائنا وعلى مجتمعاتنا بأكملها، حياتنا أفضل من دونهم، أفضل بكثير.

- وإذا كان ما نفعله خدمة للمجتمع، لماذا نأخذ عليها مالًا؟

- فعل الخير بالمجان ممكن يستمر أسابيع.. شهور، لكن سنوات؟ لا، لا بد من تمويل خدماتنا حتى نستمر يا صديقي.

- ولم اخترتني أنا كي أشاركك في هذه الخدمة؟

يرفع منصور ناظريه ويشير بيده إلى زاوية علوية في المطبخ، نحو جهاز كهربائي لقتل الذباب والحشرات قد تم تعليقه في سقف المطبخ:

- هل ترى جهاز قتل الذباب هذا؟

يلتفت رائد ليرى جهاز اصطياد الذباب معلقًا من السقف، ويقول:

- ماذا عنه؟

- هذا الجهاز غرضه الأول والأخير هو قتل الذباب. صنع فقط لهذا الغرض. هذا الجهاز لا يفيدني في عصر البرتقال، أو في تسخين الأكل البارد. هدفه الوحيد هو إبقاء المطبخ خاليًا من الذباب. مثلك أنت يا رائد، أنت غير مفيد سوى بأمر واحد هو القتل. مهما كنت جيدًا في أي شيء آخر، لكن لا بد أن نعترف.. من يعرف رائد طوال حياته سيدرك بأن هدفه في الحياة هو القتل، القتل بالسكاكين، بالمسدسات، بأي شيء، أنت خُلقت لكي تقتل، فلم لا تستفيد من هذه المهارة؟ لطالما سمعنا عن جرائمك أيام المراهقة، وكيف كنت تستمتع بإرهاب الجيران وقتل قططهم وكلابهم، وكيف كنت تستخدم السكين بمهارة لا يعرفها أحد منذ الصغر، وأيضًا استخدام المسدسات والبنادق، وأنت استغللت هذه المهارة طوال حياتك، وهي ما ساعدتك في دخول الكلية العسكرية ومن ثم رفعتك في عالم التجنيد، وأنت وأنا والعديد من رجال الداخلية والخارجية يدركون أنك عملت في مهام الاغتيال السياسي وذبحت العديد من السياسيين المعارضين مقابل المال، داخل البلاد وخارجها. فلم تتعجب إذا استغلك احد في استخدام هذه المهارة؟ لم تستغرب أن تستفيد أنت وأنا ماديًّا من هذه المهارة؟

- لا تنسى مهارتي الأخرى.

- أي مهارة أخرى؟

- كشفي للكذب!

يسود الصمت المريب بينهما للحظات، ليكسر رائد حدته بقوله بهدوء:

- أخبرني، أنت استفدت ماديًّا من مهارتي في القتل عن طريق اختطاف ابنتي؟ أليس كذلك؟

يتنهد منصور. يرجع بظهره إلى الخلف ببطء متمعنًا فيه. يحاول التفكير مليًّا في إجابته، لكنه يدرك تمام الإدراك أن رائد سيكشف كذبه، فيقول:

- بما أن اللعبة انكشفت...

يخرج منصور من جيبه سلسلة مريم الزرقاء والتي عليها حرف الميم، يضعها على الطاولة، يراها رائد والحزن يطل من عينيه، يتماسك. يحاول أن يستمر في هدوئه، يحدق في منصور الذي يردف قائلًا:

- أنت مخطئ يا حبيبي، أنا لم أخطف ابنتك، أنا قتلتها!

تنزل كلمات منصور كالصاعقة على رائد، يحاول أن يتمالك نفسه لكن رغمًا عنه تتلألأ عيناه بالدموع. يعيش رائد الآن خليطًا من المشاعر لا يستهان به على الإطلاق. صدمة وغضب وحزن وخيبة أمل. لا يصدق بالفعل ما قاله منصور.

- أنت تكذب.

يبتسم منصور متابعًا:

- عيب، أنت خبير في كشف الأكاذيب. هل تعتقد بالفعل أنني أكذب؟

تزداد علامات الغضب على وجه رائد. يبدو وكأن هناك بركانًا يثور بداخله، فيكمل منصور:

- لكن صدقني إذا قلت لك إنني حزنت جدًّا يومها. لم يكن أبدًا بالقرار السهل يا صديقي.

تتسع حدقتا رائد.

وقتها يشرد منصور متذكرًا ذلك اليوم حينما كان واقفًا في غرفة النوم في شقته البالية، وأمام سريره الذي جلست عليه مريم حاملة دبها. يقف منصور خلفها لذا لم ترَه. فقد كانت منشغلة بالدب الوردي الذي بين يديها. رفع منصور مسدسه. أطلق النار على رأسها من الخلف. سقط الدب الوردي على الأرض ملطخًا بالدماء.

تتساقط الدموع من عيني رائد. يداه ترتعشان. يبدو وكأنه سيصاب بنوبة صرع، لكن في الحقيقة، معدل السكر في دمه ارتفع. يحاول أن يحافظ على رباطة جأشه، لكن لا يستطيع. قدماه ترتعشان. يداه ترتعشان. يخفض رأسه حتى لا يرى منصور الضعف وهو يطل من عينيه.

يبرر منصور:

- لم يكن لدي سوى هذا الخيار يا صديقي. كان على ابنتك أن تموت حتى أحيي القاتل الذي بداخلك، حتى تعود إلى طبيعتك المتوحشة العاشقة للقتل، حتى تزيل قناع الإنسانية الزائف هذا وتعود وحشًا كاسرًا أستطيع كسب المال من اغتيالاته، لكن هذه المرة ليس كصائد للسياسيين والإرهابيين، بل كصائد للمتحرشين.

يبلع رائد ريقه. يرفع رأسه. ينظر إلى منصور بنظرات حادة متخمة بالغضب:

- أخبرني، ما الذي يمنعني من قتلك الآن، من تمزيق جثتك؟

- وما الذي يمنعني أنا من قتلك الآن؟ وهل تظن أنني لم أكن على دراية بما فعلته ببركات؟ هل تعتقد بالفعل أنك ستقتلني في منزلي بكل سهولة. أنا أعرف كل خطواتك يا رائد.. أعرفك عز المعرفة. بمجرد دخولك المطعم اليوم وشعرت أنك مختلف عني، شعرت أنك مستعد لقتلي.

- تعلم بأنك حتى لو قتلتني.. فستدخل السجن.

- (متعجبًا) كيف يا ترى؟ اخبرني يا صديقي.

- السكين الذي كان على طاولة الأكل في المطعم الذي لمسته..

يتعجب منصور:

- أي سكين؟!

- تذكر معي.

يحكي له رائد أنه أثناء وجودهم بالمطعم التقط السكين الموضوع أمام رائد بمنديل وهو منشغل بالحديث مع النادل. فيسأله:

- وماذا فعلت بالسكين؟!

يبتسم رائد:

- ساعدتني في مهمتي الأخيرة!

تتسع حدقتا منصور، ويتذكر رائد المشهد الأخير لعم حوراء المتحرش حينما كان جالسًا على كرسي جلدي للتدليك، مقتولًا، غارقًا في دمائه، والسكين –الذي أخذه من المطعم- مغروس في جبهته، وتهتز جثته بسبب كرسي التدليك، يخرج من شروده ويكمل حديثه:

- حتى لو قتلتني، بصمات يدك على السكين ستجرك إلى السجن أو ربما الإعدام. فتصبح أنت القاتل المتسلسل الذي تبحث عنه الشرطة والمباحث طوال هذه الفترة. فتفضل الآن.. اقتلني قبل أن أقتلك.

يكتم منصور غيظه ويحاول التماسك، يمد يديه إلى الطاولة. عيناه تلتفتان نحو باب المطبخ، يبدو أنه مستعد لقدوم أحدهم إلى داخل المطبخ. يضع منصور سلسلة مريم الزرقاء في جيبه مجددًا، ثم يقول:

- هل لديك كلمة أخيرة قبل أن نقتلك؟

يتمعن رائد في عيني منصور ليظهر شخص ما بالخلف، يبدو أن أحدهم عند باب المطبخ. تظهر علامات التعجب على وجه رائد:

- نفحة روح!

- ماذا؟

حينها يبستم رائد ويرفع يده اليسرى الممسكة بسكين حاد ويدبها في يد منصور التي كانت على الطاولة. تخترق السكين ظهر يد منصور لتصل إلى خشب الطاولة، يصرخ منصور من الألم. وسرعان ما يخرج رائد يده اليمنى من جيبه ممسكة بقنبلة يدوية ويضعها بقبضته على الطاولة، ينظر نحوها منصور بعيون امتلأت بالخوف. يبتسم رائد في وجهه. يسمع ضوضاء بالخلف وأصوات تعشيق مسدسات، وأصوات رجال خارج المبطخ.

يقول أحدهم:

- أطلق النار، أطلق النار.

يصرخ منصور:

- لا تطلقوا النار. لديه قنبلة. لديه قنبلة.

يعم الصمت خارج المطبخ. يتألم منصور وهو يرى يده مثبته على الطاولة بسبب اختراق السكين داخلها، بينما لا يزال رائد ممسكًا بالسكين غارسًا إياه بقوة في يد منصور. ينظران نحو بعضهما نظرات كلها تحدٍّ.

يقول رائد بصوت عالٍ وكأنه يخاطب من يقف خارج المطبخ:

- أهذا أنت يا أبو فهد؟

يتعجب منصور. ينظر إلى باب المطبخ خلف رائد. يبدو عليه التوتر، يكمل رائد بنفس الصوت:

- عطرك النتن من الصعب أن أنساه.

يرد صوت أبو فهد من خارج المطبخ:

- هذا العطر أغلى منك ومن أهلك أيها القاتل.

يبتسم رائد، يلتفت نحو باب المطبخ، حينها يرى أبو فهد عند عتبة الباب ممسكًا بمسدس يصوبه نحو رائد، وبجانبه نايف، يمسك هو الآخر بمسدس يصوبه نحوه. يعيد رائد النظر نحو منصور قائلًا:

- أبو فهد. لم أتوقع أن تكون كلبًا من كلاب منصور.

- لقمة العيش صعبة يا صاحبي. على الأقل أنا لا أقتل الناس في سبيل المال.

يوبخه نايف:

- اصمت يا غبي.

ثم يوجه كلامه لرائد:

- رائد، لا تكن مجنونًا. ابعد القنبلة وأزل السكين من يد منصور. لنتحدث جميعنا بعقلانية.

- عقلانية؟! كل ما فعلتموه وتطلبون مني أن أكون عقلانيًّا ! قتلتم ابنتي وتريدون أن أكون عقلانيًّا؟

يتجه نحو منصور:

- لقد انكشفت اللعبة.. أنا كنت مجرد طعم في مصيدة كبيرة قمتم بالتخطيط لها جميعًا منذ البداية.

يلوي رائد السكين المغروس في يد منصور، فيتعصر ألمًا، وهو يتوسل:

- أرجوك، لا. لا يا رائد.

- ألمك هذا لا يساوي شيئًا أمام ألمي أنا.. دمرت حياتي حرفيًّا بكل حقارة يا منصور. كل هذا مقابل المال!

يرفع منصور رأسه:

- لا تلَم الذئب إذا جاع يا رائد. كلنا ذئاب، لا نعلم سوى الاصطياد والافتراس. هذا قدرنا. وأنت مثلنا، ومهما حاولت أن تمثل دور الإنسان الطبيعي، لكنك مثلنا جميعًا.. قاتل.. سفاح.. مجرم.

يصوب نايف المسدس نحو رأس رائد من الخلف، مهددًا:

- اترك القنبلة يا رائد.

لا يزال أبو فهد مصوبًا المسدس نحو رأس رائد من الخلف بغضب:

- أقسم بالله سأفجر رأسك لو لم تستسلم الآن.

فيرد رائد:

- أطلق الرصاص وسأسقط القنبلة من يدي لتقتلنا جميعًا.

- هل أنت مستعد للموت يا جبان؟

فيقاطعه منصور:

- اصمت يا حمار.. اصمت.

ثم يوجه حديثه لرائد:

- رائد، سأدفع لك كل ما تريد، أي مبلغ تطلبه، أي مبلغ، صدقني.

حينها كان بالخارج، أصوات تكبيرات صلاة العيد تصدر من مكبر صوت المسجد المجاور. الصوت عالٍ وواضح للغاية.. يستمع رائد للتكبيرات بهدوء ناظرًا لمنصور. تزداد علامات القلق على وجه منصور وهو يشاهد القنبلة في يد رائد، بينما يزداد التوتر على وجه كل من نايف وأبو فهد بالخلف، يحاول منصور تهدئته:

- لا تتهور يا رائد.

ثم يقول نايف:

- رائد، أرجوك.. اعقل ودعنا نتحدث.

بينما يزداد غضب أبو فهد:

- ارمِ القنبلة وإلا قتلناك.. ارمِها.

يبتسم رائد:

- حاضر.

يرفع رائد يده الممسكة بالقنبلة اليدوية، يفصل صمام الأمان عنها بأصبعه ويرميها بهدوء إلى خلفه، لتسقط عند عتبة الباب بين قدمي نايف وأبو فهد. ينظر كل من أبو فهد ونايف بهلع نحو القنبلة متسمرين في مكانهم. يصرخ منصور من الصدمة.

تنفجر القنبلة، لتتناثر أشلاء جسدي أبو فهد ونايف في أرجاء المكان، تتطاير الشظايا الحارقة في المطبخ لتصيب ظهر رائد الذي طار إلى الأمام وسقط على منصور، تتطاير قطع السيراميك ويسقط باب المطبخ على الأرض من قوة الانفجار.

تلطخ الدماء أرجاء المطبخ. جثة نايف ممزقة مرمية بجانب أشلاء جثة أبو فهد.

يرفع رائد رأسه الملطخ بالدماء، وملابسه ممزقة من شدة الانفجار. تسيل الدماء من ظهره. يلتفت حوله ليرى جثتي نايف وأبو فهد أمام المطبخ، يلتفت إلى خلفه، حينها يباغته منصور ممسكًا بالسكين، فيغرسه داخل بطنه. يسقط رائد على الأرض ومنصور يطعنه بالسكين بشدة. ينظران نحو بعضهما بنظرات تحدٍّ مخلوط بالغضب ولا تخلو من الألم.

يرفع رائد أصبعه ليضعه في الثقب الموجود في ظهر يد منصور، فيزداد ألمه. يستغل رائد الفرصة ويبعد جسد منصور عنه ويخرج السكين من بطنه، يمسكه ويهوي به على وجه منصور، ليمزق وجنتيه، فيسقط منصور على الأرض والدماء تسيل من وجهه. جسده يرتجف. يهم بالزحف محاولًا الخروج من المطبخ.

يكح رائد بشدة ويئن من شدة الطعنة في كتفه. يهم منصور بالوقوف وجسده يرتعش من الصدمة والألم. تسيل الدماء من فمه. عيناه تذرفان الدموع من الألم والخوف.

لا تزال أصوات تكبيرات العيد في الخلفية تملأ ارجاء المكان..

يخرج منصور من المطبخ ويتجاوز بقدميه أشلاء جسد نايف وأبو فهد. يمسك بمسدس نايف ويلتفت إلى المطبخ محاولًا تصويب المسدس نحو رائد، إلا أن رائد ينقض عليه حاملًا السكين بيده.

يسقطان على الأرض، يطعن رائد منصور في صدره، يصرخ من شدة الألم ويصوب المسدس نحو رائد الذي يمسك بيده ويبعدها عنه، يطلق منصور الرصاص من المسدس، الرصاصة تلو الأخرى، جميعها في الهواء دون أن تصيب أي هدف، حتى نفدت ذخيرة المسدس. يزيل رائد السكين من صدر منصور ويهوي به مرة أخرى ليطعنه في صدره ثانيةً. ينظر في عينيه وهو يحتضر. الروح بدأت مراسم رحيلها من جسد منصور. جسده يرتعش، عيناه ترتجفان.

ينتزع السكين من صدره ليقوم بنحر رقبته. تسيل الدماء بغزارة من رقبة منصور الذي يرتعش أكثر فأكثر معلنًا بداية خروج روحه من جسده. يجلس رائد فوق جسمه، ويبدأ بتمزيق رقبته بقوة.

يزداد ارتعاش جسده، يحاول إبعاده عنه، لكن رائد وبشراسة يستمر في نحره وتمزيق عنقه. ترتخي يدا منصور، ليلفظ أنفاسه، والدماء تسيل من رقبته بشدة بينما لا يزال رائد جالسًا فوق جسده يمزق في عنقه.

ينهمك رائد في تمزيق أوصال رقبة منصور حتى ينجح في فصل رأسه عن جسده. يرفع رأس منصور بيديه، ينظر نحوه وكتل الدماء تسيل منه، ثم يهم بالوقوف ممسكًا برأس الميت، ويرميه بعيدًا. ينظر نحو جثة منصور التي أصبحت بلا رأس.. غارقة في بركة من الدماء.

ينحني ويفتش في جيب منصور، ليخرج من جيبه سلسلة مريم الزرقاء. يتأملها بعيون حزينة. يمسكها بيديه الملطختين بالدماء. تتساقط الدموع من عينيه، يسير مبتعدًا عن الجثة ودمائها متجهًا بخطى ثقيلة نحو أقرب أريكة في غرفة المعيشة.

تكبيرات العيد لا تزال في الخلفية..

يجلس على الأريكة ملطخًا بالدماء. الجروح انتشرت في جسده، الدماء تسيل من بطنه بغزارة. يتيّقن أن لحظة رحيله قد اقتربت. يرفع رأسه. يبدو عليه الارتياح. لقد انتقم أخيرًا ممن دمروا حياته.

يبلع ريقه، وينظر إلى أعلى وهو يستمع إلى تكبيرات العيد.

بدا الرضا واضحًا على وجهه، فرغم الحروق والجروح والدماء التي تسيل من جسده، إلا أنه بدا هادئًا، راضيًا، مرتاح البال.

ينظر إلى سلسلة ابنته في يده والدموع في عينيه، حينها تظهر مريم من خلفه وتحتضنه حيث تلف ذراعيها الصغيرتين حول جسد والدها، وتضع رأسها على كتفه من الخلف، الرضا واضح على وجه مريم التي أغمضت عينيها في هدوء وهي مرتاحة على كتف والدها وتعانقه من الخلف. يبتسم رائد ابتسامة عريضة، تتساقط الدموع من عينيه، وتسيل الدماء من فمه بغزارة أثناء الابتسام.

إنها ابتسامة ملطخة بالدماء، لكنها في الوقت ذاته ابتسامة مليئة بالحب والرضا والسعادة. مشاعر لم يعشها منذ سنين، لكن ها هو يعيشها مجددًا وللمرة الأخيرة!

الفهرس

1. (١)
2. (٢)
3. (٣)
4. (٤)
5. (٥)
6. (٦)
7. (٧)
8. (٨)